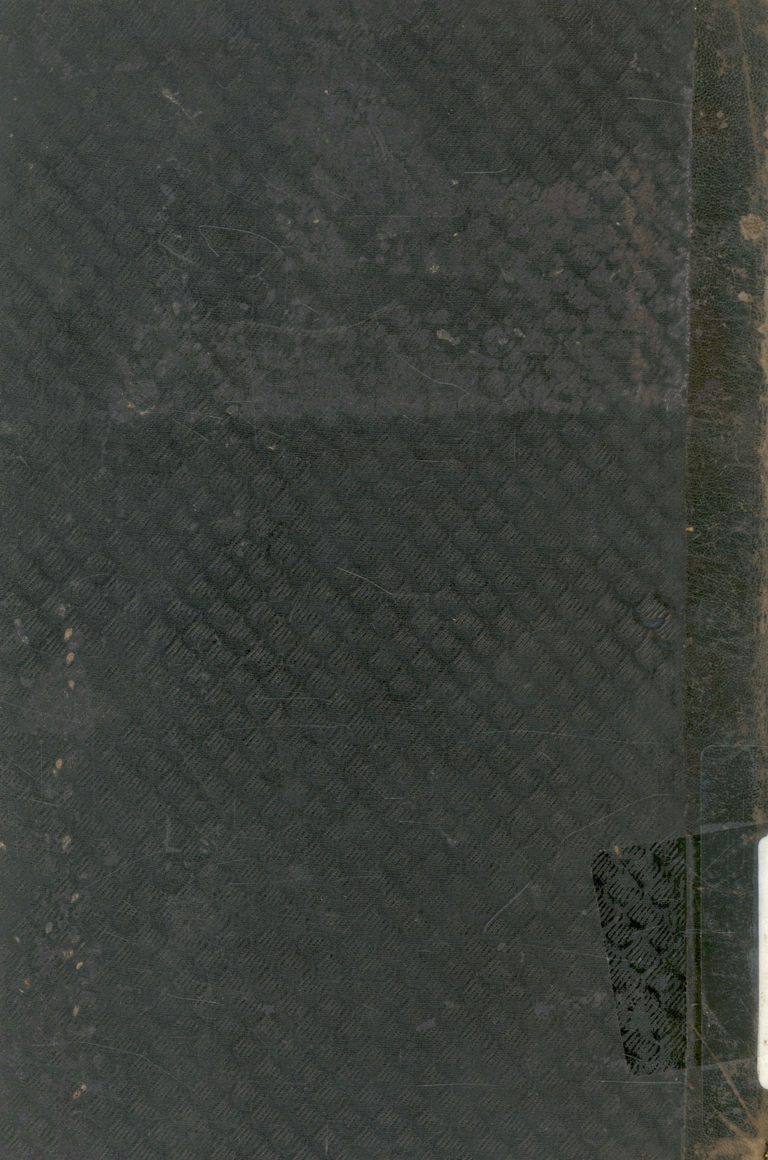


اهداءات ٢٠٠٢

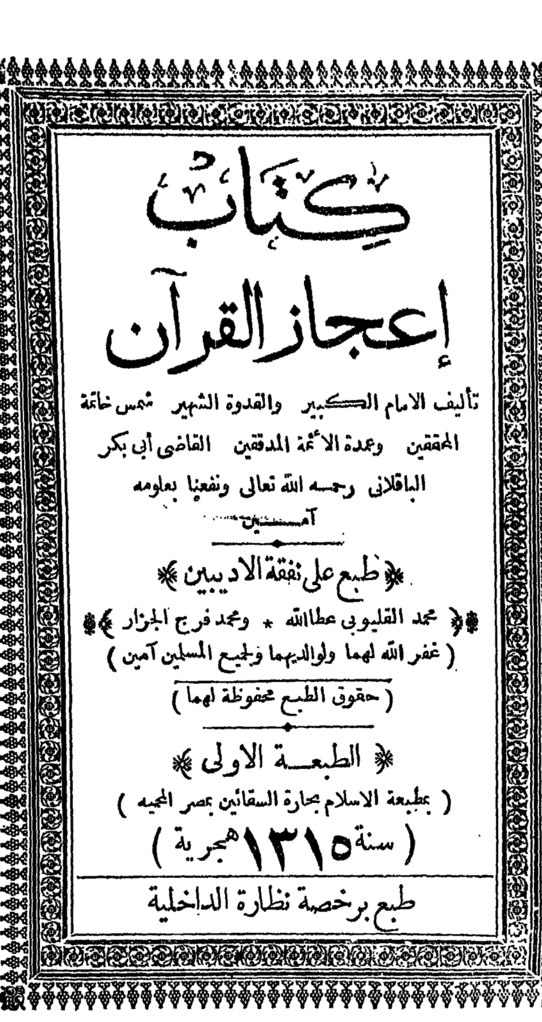
أسرة د/ عبد الرحمن بدوي

جمعية د /عبد الرحمن بدوي للإبداع الثقافي

القاهرة

فهرست كتاب اعجاز القرآن للقاضى أبى بكر الباقلانى

(تمت الفهرست)



كتاب إعجاز القرآن

تأليف الامام الكبير والقدوة الشهير شمس خاتمة المحققين وعمدة الأئمة المدققين القاضي أبي بكر الباقلاني رحمه الله تعالى ونفعنا بعلومه آمين

﴿ طبع على نفقة الاديبين ﴾

﴿ محمد القليوبي عطاالله * ومحمد فرج الجزار ﴾

(غفر الله لهما ولوالديهما ولجميع المسلمين آمين)

﴿ الطبعة الاولى ﴾

(بمطبعة الاسلام بحارة السقائين بمصر المحميه)

(سنة ١٣١٥ هجرية)

طبع برخصة نظارة الداخلية



الحمد لله المنعم على عباده بما هداهم اليه من الايمان * والمتم احسانه بما أقام لهم من جلي البرهان * الذي حمد نفسه بما أنزل من القرآن ليكون بشيرا ونذيرا * وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا * وهاديا الى ما ارتضى لهم من دينه * وسلطانا أوضح وجه تبيينه * ودليلا على وحدانيته * ومرشدا الى معرفة عزته وجبروته * ومفصحا عن صفات جلاله * وعلو شأنه وعظيم سلطانه * وحجة لرسوله الذي أرسله به وعلما على صدقه * وبينة على انه أمينه على وحيه وصادع بأمره * فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحمله * ورسالة تشتمل على تصحيح قول مؤديها * بين فيه سبحانه ان حجته كافية هادية لا يحتاج مع وضوحها الى بينة تعدوها أو حجة تتلوها وان الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات والشك في المشاهدات * ولذلك قال عز ذكره ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين وقال عز وجل ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون فله الشكر على جزيل احسانه وعظيم مننه والصلاة على سيدنا محمد المصطفى وآله وسلم ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه * وأولى ما يلزم بحثه * ما كان لاصل دينهم قواما * ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما * وعلى صدق نبيهم صلى الله عليه وسلم برهانا ولمعجزته ثبتا وحجة لاسيما والجهل ممدود الرواق * شديد النفاق * مستول على الآفاق * والعلم الى عفاء ودروس * وعلى خفاء وطموس * وأهله في جفوة الزمن البهيم * يقاسون من عبوسه لقاء الاسد الشتيم * حتى صار ما يكابدونه قاطعا

عن الواجب من سلوك مناهجه والاخذ فى سبله فالناس بين رجلين ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشد وآخر مصدود عن نصرته مكدود فى صنعته فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين فى أصول الدين وتشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين وقد قل أنصاره واشتغل عنه أعوانه وأسلمه أهله فصار عرضة لمن شاء ان يتعرض فيه حتى عاد مثل الامر الاول على ماخاضوا فيه عند ظهور أمره فمن قائل قال انه سحر وقائل يقول انه شعر وآخر يقول انه أساطير الاولين وقالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا الى الوجوه التى حكى الله عز وجل عنهم انهم قالوا فيه وتكلموا به فصرفوه اليه * وذكر لى عن بعض جهالهم انه جعل يعدله ببعض الاشعار ويوازن بينه و بين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر وقد سبقهم الى عظم مايقولونه اخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم الا ان أكثر من كان طعن فيه فى أول أمره استبان رشده وأبصر قصده فتاب وأناب وعرف من نفسه الحق بغريزة طبعه وقوة اتقانه لا لتصرف لسانه بل لهداية ربه وحسن توفيقه والجهل فى هذا الوقت أغلب والملحدون فيه عن الرشد أبعد وعن الواجب أذهب وقد كان يجوز ان يقع ممن عمل الكتب النافعة فى معانى القرآن وتكلم فى فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام ان يبسطوا القول فى الابانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول فى الجبر ودقيق الكلام فى الاعراض وكثير من بديع الاعراب وغامض النحو فالحاجة الى هذا أمس والاشتغال به أوجب وقد قصر بعضهم فى هذه المسئلة حتى أدى ذلك الى تحول قوم منهم الى مذاهب البراهمة فيها ورأوا ان عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها ولا وجه لها حين رأوهم قد برعوا فى لطيف ما أبدعوا وانتهوا الى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا ثم رأوا ماصنفوه فى هذا المعنى غير كامل فى بابه ولا مستوفى فى وجهه قد أخل بتهذيب طرقه وأهمل ترتيب بيانه وقد يعذر بعضهم فى تفريط يقع منه فيه وذهاب عنه لان هذا الباب مما يمكن احكامه بعد التقدم فى أمور شريفة المحل عظيمة المقدار دقيقة المسلك لطيفة المأخذ واذا انتهينا الى تفصيل القول فيها استبان ماقلناه من الحاجة الى هذه المقدمات حتى يمكن بعدها احكام القول فى هذا الشأن وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ماقاله المتكلمون قبله ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى * وسألنا سائل ان نذكر جملة من القول جامعة تسقط الشبهات وتزيل الشكوك التى تعرض للجهال وتنتهى الى مايخطر لهم و يعرض لافهامهم من الطعن فى وجه المعجزة فأجبناه الى

ذلك متقربين الى الله عزّ وجلّ ومتوكلين عليه وعلى حسن توفيقه ومعونته ونحن نبين
ماسبق فيه البيان من غيرنا ونشير اليه ولانبسط القول لئلا يكون ماألفناه مكررا
ومقولا بل يكون مستفادا من جهة هذا الكتاب خاصة ونضيف اليه مايجب وصفه من
القول فى تنزيل متصرفات الخطاب وترتيب وجوه الكلام وما تختلف فيه طرق البلاغة
وتتفاوت من جهته سبل البراعة ومايشتبه له ظاهر الفصاحة ويختلف فيه المختلفون
من أهل صناعة العربية والمعرفة بلسان العرب فى أصل الوضع ثم مااختلفت به مذاهب
مستعمليه فى فنون ماينقسم اليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجارى
الخطاب وان كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول مايبين فيه التفاصح وتقصد فيه البلاغة
لان هذه أمور يتعمل لها فى الاغلب ولايتجوز فيها ثم من بعد هذا الكلام الدائر فى
محاوراتهم والتفاوت فيه أكثر لان التعمل فيه أقل الا من غزارة طبع أوفطانة تصنع
وتكلف ونشير الى مايجب فى كل واحد من هذه الطرق ليعرف عظم محل القرآن وليعلم
ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه وتجاوزه الحد الذى يصح أو يجوز ان يوازن بينه
وبينها أو يشتبه ذلك على متأمل ولسنا نزعم انه يمكننا ان نبين مارمنا بيانه وأردنا شرحه
وتفصيله لمن كان عن معرفة الأدب ذاهبا وعن وجه اللسان غافلا لان ذلك ممالاسبيل
اليه الا ان يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا اليه من أهل صناعة العربية
قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه وعرف جملة من طرق المتكلمين
ونظر فى شئ من أصول الدين وانما ضمن الله عز وجل فيه البيان لمثل من وصفناه فقال
كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون وقال انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون

فصل فى أن نبوّة النبيّ صلى الله عليه وسلم معجزتها القرآن

الذى يوجب الاهتمام التام بمعرفة اعجاز القرآن ان نبوّة نبينا عليه السلام بنيت
على هذه المعجزة وان كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة الا ان تلك المعجزات قامت فى
أوقات خاصة وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة ونقل بعضها نقلا متواترا يقع به العلم
وجودا وبعضها مما نقل نقلا خاصا الا انه حكى بمشهد من الجمع العظيم انهم شاهدوه
فلو كان الامر على خلاف ماحكى لانكروه أو لأنكره بعضهم فحل محل المعنى الاول
وان لم يتواتر أصل النقل فيه وبعضها مما نقل من جهة الآحاد وكان وقوعه بين يدى
الآحاد فأما دلالة القرآن فهى عن معجزة عامة عمت الثقلين وبقيت بقاء العصرين
ولزوم الحجة بها فى أول وقت ورودها الى يوم القيامة على حد واحد وان كان قد

يعلم بعجز أهل العصر الاول عن الاتيان بمثله وجه دلالته فيغنى ذلك عن نظر مجدد فى عجز
اول العصر عن مثله وكذلك قد يغنى عجز أهل هذا العصر عن الاتيان بمثله عن النظر فى
حال أهل العصر الاول وانما ذكرنا هذا الفصل لما حكى عن بعضهم انه زعم انه وان كان
قد عجز عنه أهل العصر الاول فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه ويكفى عجز أهل العصر
الاول فى الدلالة أنهم خصوا بالتحدى دون غيرهم ونحن نبين خطأ هذا القول فى موضعه
فأما الذى يبين ماذكرناه من ان الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن وبنى أمر
نبوته عليه سور كثيرة وآيات نذكر بعضها وننبه بالمذكور على غيره فليس يخفى بعد
التنبيه على طريقه فمن ذلك قوله تعالى الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات
الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد فأخبر انه أنزله ليقع الاهتداء به ولا يكون
كذلك الا وهو حجة ولا تكون حجة ان لم تكن معجزة وقال عزوجل وان أحد من
المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله فلولا ان سماعه اياه حجة عليه لم يوقف
أمره على سماعه ولا يكون حجة الا وهو معجزة وقال عزوجل وانه لتنزيل رب العالمين
نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين وهذا بين جدا فيما قلناه من انه
جعله سببا لكونه منذرا ثم أوضح ذلك بأن قال بلسان عربى مبين فلولا ان كونه بهذا
اللسان حجة لم يعقب كلامه الاول به وما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة الا
وقد أشبع فيها بيان ماقلناه ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على مابعده وكثير من هذه
السور اذا تأملته فهو من أوله الى آخره مبنى على لزوم حجة القرآن والتنبيه على وجه
معجزته فمن ذلك سورة المؤمن قوله عزوجل حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم
ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب الى ان قال
مايجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فدل على ان الجدال فى تنزيله كفر والحاد ثم أخبر
بما وقع من تكذيب الأمم برسلهم بقوله عزوجل كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من
بعدهم الى آخر الآية فتوعدهم بأنه آخذهم فى الدنيا بذنبهم فى تكذيب الانبياء ورد
براهينهم فقال فأخذتهم فكيف كان عقاب ثم توعدهم بالنار فقال وكذلك حقت كلمة ربك
على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ثم عظم شأن المؤمنين بهذه الحجة بما أخبر من استغفار
الملائكة لهم وما وعدهم عليه من المغفرة فقال الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون
بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر
للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم فلولا انه برهان قاهر لم يذم الكفار على
العدول عنه ولم يحمد المؤمنين على المصير اليه ثم ذكر تمام الآيات فى دعاء الملائكة

المؤمنين ثم عطف على وعيد الكافرين فذكر آيات ثم قال هو الذى يريكم آياته فأمر بالنظر فى آياته وبراهينه الى ان قال رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق فجعل القرآن والوحى به كالروح لانه يؤدى الى حياة الابد ولانه لا فائدة للجسد بدون الروح فجعل هذا الروح سببا للانذار وعلما عليه وطريقا اليه ولولا ان ذلك برهان بنفسه لم يصح ان يقع به الانذار والاخبار عما يقع عند مخالفته ولم يكن الخبر عن الواقع فى الآخرة عند ردهم دلالته من الوعيد حجة ولا معلوما صدقه فكان لا يلزمهم قبوله فلما خلص من الآيات فى ذكر الوعيد على ترك القبول ضرب لهم المثل بمن خالف الآيات وجحد الدلالات والمعجزات فقال أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم الى آخر الآية ثم بين ان عاقبتهم صارت الى السوآى بأن رسلهم كانت تأتيهم بالبينات وكانوا لا يقبلونها منهم فعلم ان ماقدم ذكره فى السورة بينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر قصة موسى ويوسف عليهما السلام ومجيئهما بالبينات ومخالفتهم حكمها الى ان قال الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار فأخبر ان جدالهم فى هذه الآيات لا يقع بحجة وانما يقع عن جهل وان الله يطبع على قلوبهم ويصرفهم عن تفهم وجه البرهان لجحودهم وعنادهم واستكبارهم ثم ذكر كثيرا من الاحتجاج على التوحيد ثم قال ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ثم بين هذه الجملة وان من آياته الكتاب فقال الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون الى ان قال وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله فدل على ان الآيات على ضربين أحدهما كالمعجزات التى هى أدلة فى دار التكليف والثانى الآيات التى ينقطع عندها العذر ويقع عندها العلم الضرورى وانها اذا جاءت ارتفع التكليف ووجب الاهلاك الى ان قال فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا فاعلمنا انه قادر على هذه الآيات ولكنه اذا أقامها زال التكليف وحقت العقوبة على الجاحدين وكذلك ذكر فى حم السجدة على هذا المنهاج الذى شرحنا فقال عز وجل حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فلولا انه جعله برهانا لم يكن بشيرا ولا نذيرا ولم يختلف بأن يكون عربيا مفصلا أو بخلاف ذلك ثم أخبر عن جحودهم وقلة قبولهم بقوله فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ولولا انه حجة لم يضرهم الاعراض عنه وليس لقائل ان يقول قد يكون حجة ويحتاج فى كونه حجة الى دلالة أخرى كما ان الرسول حجة ولكنه يحتاج الى دلالة على صدقه

وصحة نبوته وذلك انه انما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل ولم يذكر حجة غيره ويبين ذلك انه قال عقيب هذا قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى" فأخبر انه مثلهم لولا الوحي ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ومعناه الذين آمنوا بهذا الوحي والتنزيل وعرفوا هذا الحجة ثم تصرف فى هذا الاحتجاج على الوحدانية والقدرة الى ان قال فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فتوعدهم بما أصاب من قبلهم من المكذبين بآيات الله من قوم عاد وثمود فى الدنيا ثم توعدهم بأمر الآخرة فقال ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون الى انتهاء ماذكره فيه ثم رجع الى ذكر القرآن فقال وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ثم أثنى بعد ذلك على من تلقاه بالقبول فقال ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا ثم قال واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم وهذا ينبه على ان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف اعجاز القرآن وانه دلالة له على جهة الاستدلال لان الضروريات لايقع فيها نزغ الشيطان ونحن نبين مايتعلق بهذا الفصل فى موضعه ثم قال ان الذين يلحدون فى آياتنا الى ان قال ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا وان كان متأولا على انه لايوجد فيه غير الحق مما يتضمنه من أقاصيص الاولين وأخبار المرسلين وكذلك لايوجد خلف فيما يتضمنه من الاخبار عن الغيوب وعن الحوادث التى أبنا انها تقع فى الثانى فلا يخرج عن ان يكون متأولا على مايقتضيه نظام الخطاب من انه لايأتيه مايبطله من شبهة سابقة تقدح فى معجزته أو تعارضه فى طريقه وكذلك لايأتيه من بعده قط أمر يشكك فى وجه دلالته وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه ثم قال ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى فأخبر انه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون فى رده اما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم وكانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه وبأنهم لايبين لهم وجه الاعجاز فيه لانه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الامور وانه اذا تحداهم الى ماهو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به على مانبينه فى وجه هذا الفصل الى ان قال قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد والذى ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور فكرهنا سرد القول فيها فليتأمل المتأمل مادللناه عليه يجده كذلك ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما

أنا نذير مبين أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم فأخبر ان الكتاب آية من آياته وعلم من أعلامه وان ذلك يكفى فى الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الانبياء صلوات الله عليهم ويدل عليه قوله عز وجل تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقوله أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته فدل على انه جعل قلبه مستودعا لوحيه ومستنزلا لكتابه وانه لو شاء صرف ذلك الى غيره وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق وابطال الباطل مع صرفه عنه ولذلك أشباه كثيرة تدل على نحو الدلالة التى وصفناها فبان بهذا وبنظائره ماقلناه من ان بناء نبوته صلى الله عليه وسلم على دلالة القرآن ومعجزته وصار له من الحكم فى دلالته على نفسه وصدقه انه يمكن ان يعلم انه كلام الله تعالى وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الانبياء لانها لاتدل على أنفسها الا بأمر زائد ووصف مضاف اليها لان نظمها ليس معجزا وان كان مايتضمنه من الاخبار عن الغيوب معجزا وليس كذلك القرآن لانه يشاركها فى هذه الدلالة ويزيد عليها فى ان نظمه معجز فيمكن ان يستدل به عليه وحل فى هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم سبحانه وتعالى لان موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم انه فى الحقيقة كلامه وكذلك من يسمع القرآن يعلم انه كلام الله وان اختلف الحال فى ذلك من بعض الوجوه لان موسى عليه السلام سمعه من الله عز وجل وأسمعه نفسه متكلما وليس كذلك الواحد منا وكذلك قد يختلفان فى غير هذا الوجه وليس ذلك قصدنا بالكلام فى هذا الفصل والذى نرومه الآن مابينا من اتفاقهما فى المعنى الذى وصفنا وهو انه عليه السلام يعلم ان مايسمعه كلام الله من جهة الاستدلال وكذلك نحن نعلم مانقرؤه من هذا على جهة الاستدلال

فصل فى الدلالة على ان القرآن معجزة

قد ثبت بما بينا فى الفصل الاوّل ان نبوّة نبينا صلى الله عليه وسلم مبنية على دلالة معجزة القرآن فيجب ان نبين وجه الدلالة من ذلك قد ذكر العلماء ان الاصل فى هذا هو ان تعلم ان القرآن الذى هو متلوّ محفوظ مرسوم فى المصاحف هو الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وانه هو الذى تلاه على من فى عصره ثلاثا وعشرين سنة والطريق الى معرفة ذلك هو النقل المتواتر الذى يقع عنده العلم الضرورى به وذلك انه قام به فى المواقف وكتب به الى البلاد وتحمله عنه اليها من تابعه وأورده على غيره من لم يتابعه

حتى ظهر فيهم الظهور الذى لايشتبه على أحد ولا يحتمل انه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه ويأخذه على غيره ويأخذ غيره على الناس حتى انتشر ذلك فى أرض العرب كلها وتعدى الى الملوك المعاقبة لهم كملك الروم والعجم والقبط والحبش وغيرهم من ملوك الاطراف ولما ورد ذلك مضادا لاديان أهل ذلك العصر كلهم ومخالفا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة فى الكفر وقف جميع أهل الخلاف على جملته ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالايمان على جملته وتفاصيله وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال وتنقلت به الرحال وتعلمه الكبير والصغير اذ كان عمدة دينهم وعلما عليه والمفروض تلاوته فى صلواتهم والواجب استعماله فى أحكامهم ثم تناقله خلف عن سلف ثم مثلهم فى كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله حتى انتهى الينا ما وصفناه من حاله فلن يتشكك أحد ولا يجوز ان يتشكك مع وجود هذه الاسباب فى انه أتى بهذا القرآن من عند الله فهذا أصل واذا ثبت هذا الاصل وجودا فانا نقول انه تحداهم الى ان يأتوا بمثله وقرعهم على ترك الاتيان به طول السنين التى وصفناها فلم يأتوا بذلك والذى يدل على هذا الاصل انا قد علمنا ان ذلك مذكور فى القرآن فى المواضع الكثيرة كقوله وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وكقوله أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون فجعل عجزهم عن الاتيان بمثله دليلا على انه منه ودليلا على وحدانيته وذلك يدل عندنا على بطلان قول من زعم انه لا يمكن ان يعلم بالقرآن الوحدانية وزعم ان ذلك مما لا سبيل اليه الا من جهة العقل لان القرآن كلام الله عز وجل ولا يصح ان يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولا فقلنا اذا ثبت بما نبينه اعجازه وان الخلق لا يقدرون عليه ثبت ان الذى أتى به غيرهم وانه انما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم وانه صدق واذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقا وليس اذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع ان يعرف من الوجهين وليس الغرض تحقيق القول فى هذا الفصل لانه خارج عن مقصود كلامنا ولكنا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه ومن ذلك قوله عز وجل "قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وقوله أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين فقد ثبت بما بيناه انه تحداهم اليه ولم يأتوا بمثله وفى هذا أمران أحدهما التحدى اليه والآخر انهم لم يأتوا له بمثل والذى يدل على ذلك النقل المتواتر

الذى يقع به العلم الضرورى فلا يمكن جحود واحد من هذين الامرين وان قال قائل لعله لم يقرأ عليهم الآيات التى فيها ذكر التحدى وانما قرأ عليهم ماسوى ذلك من القرآن كان كذلك قولا باطلا يعلم بطلانه مثل مايعلم به بطلان قول من زعم ان القرآن أضعاف هذا وهو يبلغ حمل جمل وانه كتم وسيظهره المهدى أو يدعى ان هذا القرآن ليس هو الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وانما هو شئ وضعه عمر أو عثمان رضى الله عنهما حيث وضع المصحف أو يدعى فيه زيادة أو نقصانا وقد ضمن الله حفظ كتابه ان يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه و وعده الحق وحكاية قول من قال ذلك يغنى عن الرد عليه لان العدد الذين أخذوا القرآن فى الامصار وفى البوادى وفى الاسفار والحضر وضبطوه حفظا من بين صغير وكبير وعرفوه حتى صار لايشتبه على أحد منهم حرف لايجوز عليهم السهو والنسيان ولا التخليط فيه والكتمان ولو زادوا ونقصوا أو غيروا لظهر وقد علمت ان شعر امرئ القيس وغيره لايجوز أن يظهر ظهور القرآن ولا أن يحفظ كحفظه ولا ان يضبط كضبطه ولا ان تمس الحاجة اليه مساسها الى القرآن لو زيد فيه بيت أو نقص منه بيت لابل لو غير فيه لفظ لتبرأ منه أصحابه وأنكره أربابه فاذا كان ذلك مما لايمكن فى شعر امرئ القيس ونظرائه مع ان الحاجة اليه تقع لحفظ العربية فكيف يجوز أو يمكن ماذكروه فى القرآن مع شدة الحاجة اليه فى أصل الدين ثم فى الاحكام والشرائع واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه فمنهم من يضبطه لاحكام قراءته ومعرفة وجوهها وصحة ادائها ومنهم من يحفظه للشرائع والفقه ومنهم من يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه ومنهم من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة ومن الملحدين من يحصله لينظر فى عجيب شأنه وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة على كثرة اعدادهم واختلاف بلادهم وتفاوت أغراضهم ان يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان ويبين ذلك انك اذا تأملت ماذكر فى أكثر السور مما بينا ومن نظائره فى رد قومه عليه و ردغيرهم وقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا وقول بعضهم ان هذا الا اختلاق الى الوجوه التى يصرف اليها قولهم فى الطعن عليه فمنهم من يستهين بها و يجعل ذلك سببا لتركه الاتيان بمثله ومنهم من يزعم انه مفترى فلذلك لا يأتى بمثله ومنهم من يزعم انه دارس وانه أساطير الاولين وكرهنا ان نذكر كل آية تدل على تحديه لئلا يقع التطويل ولو جاز ان يكون بعضه مكتوما جاز على كله ولو جاز ان يكون بعضه موضوعا جاز ذلك فى كله فثبت بما بيناه انه تحدى اليه وانهم لم يأتوا له بمثل وهذا الفصل قد بينا ان الجميع قد ذكروه وبنوا عليه فاذا ثبت هذا وجب ان يعلم بعده ان تركهم للاتيان بمثله كان لعجزهم

عنه والذى يدل على انهم كانوا عاجزين عن الاتيان بمثل القرآن انه تحداهم اليه حتى طال التحدى وجعله دلالة على صدقه ونبوته وتضمن احكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا وتوصلوا الى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه بأمر قريب هو عادتهم فى لسانهم ومألوف من خطابهم وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال واكثار المراء والجدال وعن الجلاء عن الاوطان وعن تسليم الاهل والذرية للسبي فلما لم يحصل هناك معارضة منهم علم انهم عاجزون عنها يبين ذلك ان العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ماقدر عليه من المكايد لاسيما مع استعظامه ماأبدعه بالمجيء من خلع آلهته وتسفيه رأيه فى ديانته وتضليل آبائه والتغريب عليه بما جاء به واظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته والتصرف على حكم ارادته والعدول عن الفه وعادته والانخراط فى سلك الاتباع بعدان كان متبوعا والتشييع بعدان كان مشيعا وتحكيم الغير فى ماله وتسليطه اياه على جملة أحواله والدخول تحت تكاليف شاقة وعبادات متعبة بقوله وقد علم ان بعض هذه الاحوال مما يدعو الى سلب النفوس دونه هذا والحمية حميتهم والهمم الكبيرة هممهم وقد بذلوا له السيف وأخطروا بنفوسهم وأموالهم فكيف يجوز أن لايتوصلوا الى الرد عليه والى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم ومايمكن تناوله من غير ان يعرق فيه جبين أو يشتغل به خاطر وهو لسانهم الذى يتخاطبون به مع بلوغهم فى الفصاحة النهاية التى ليس وراءها مطلع والرتبة التى ليس وراءها منزع ومعلوم انهم لو عارضوه بما تحداهم اليه لكان فيه توهين أمره وتكذيب قوله وتفريق جمعه وتشتيت أسبابه وكان من صدق به يرجع على أعقابه ويعود فى مذهب أصحابه فلما لم يفعلوا شيأ من ذلك مع طول المدة ووقوع الفسحة وكان أمره يتزايد حالا فحالا ويعلو شيأ فشيأ وهم على العجز عن القدح فى آيته والطعن فى دلالته علم مما بينا انهم كانوا لايقدرون على معارضته ولا على توهين حجته وقد أخبر الله تعالى عنهم انهم قوم خصمون وقال لتنذر به قوما لدا وقال خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين وعلم أيضا ان ما كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن مما حكى الله عز وجل عنهم من قولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين وقولهم ماهذا الا سحر مفترى وماسمعنا بهذا فى آبائنا الاولين وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وقالوا أفتأتون السحر وأنتم تبصرون وقالوا أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الاولين اكتتبها

فهي تملى عليه بكرة وأصيلا وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقوله الذين جعلوا القرآن عضين الى آيات كثيرة في نحو هذا تدل على انهم كانوا متحيرين في أمرهم متعجبين من عجزهم يفزعون الى نحو هذه الامور من تعليل وتعذير ومدافعة بما وقع التحدي اليه وعرف الحث عليه وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب وجاهروه ونابذوه وقطعوا الارحام وأخطروا بأنفسهم وطالبوه بالآيات والاتيان بغير ذلك من المعجزات يريدون تعجيزه ليظهروا عليه بوجه من الوجوه فكيف يجوز ان يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم وذلك يدحض حجته ويفسد دلالته ويبطل أمره فيعدلون عن ذلك الى سائر ما صاروا اليه من الامور التي ليس عليها مزيد في المنابذة والمعاداة ويتركون الامر الخفيف هذا مما يمتنع وقوعه في العادات ولا يجوز اتفاقه من العقلاء والى هذا قد استقصى أهل العلم الكلام وأكثروا في هذا المعنى وأحكموه ويمكن ان يقال انهم لو كانوا قادرين على معارضته والاتيان بمثل ما أتى به لم يجز ان يتفق منهم ترك المعارضة وهم على ماهم عليه من الذرابة والسلاقة والمعرفة بوجوه الفصاحة وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته وانهم يضعفون عن مجاراته ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي به ويقرعهم ويؤنبهم عليه ويدرك آماله فيهم وينجح ما يسعى له بتركهم المعارضة وهو يذكر فيما يتلوه تعظيم شأنه وتفخيم أمره حتى يتلو قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وقوله ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ان أنذروا انه لا اله الا أنا فاتقون وقوله ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم وقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون وقوله وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون وقوله هدى للمتقين وقوله الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله الى غير ذلك من الآيات التي تتضمن تعظيم شأن القرآن فنها ما يتكرر في السورة في مواضع منها ومنها ما ينفرد فيها وذلك مما يدعوهم الى المباراة ويحضهم على المعارضة وان لم يكن متحدّيا اليه ألا ترى انهم قد كان يتنافر شعراؤهم بعضهم بعضا ولهم في ذلك مواقف معروفة وأخبار مشهورة وأيام منقولة وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم فلن يجوز والحالة هذه ان يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها تحداهم اليها أو لم يتحدهم ولو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر آخر وهو انه لو كان مقدورا للعباد لكان قد اتفق الى وقت مبعثه من هذا القبيل ما كان يمكنهم ان يعارضوه به وكانوا لا يفتقرون الى تكلف

وضعه وتعمل تظمه فى الحال فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق وخطبة متقدمة و رسالة سالفة ونظم بديع ولا عارضوه به فقالوا هذا افصح مما جئت به وأغرب منه أو هو مثله علم انه لم يكن الى ذلك سبيل وانه لم يوجد له نظير ولو كان وجد له مثل لكان ينقل الينا ولعرفناه كما نقل الينا أشعار أهل الجاهلية وكلام الفصحاء والحكماء من العرب وأدّى الينا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من أنواع بلاغاتهم وصنوف فصاحاتهم فان قيل الذى بنى عليه الامر فى تثبيت معجزة القرآن انه وقع التحدى الى الاتيان بمثله وانهم عجزوا عنه بعد التحدى اليه فاذا نظر الناظر وعرف وجه النقل المتواتر فى هذا الباب وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه وماذكرتم يوجب سقوط تأثير التحدى وان ما أتى به قد عرف العجز عنه بكل حال قيل انما احتيج الى التحدى لاقامة الحجة واظهار وجه البرهان لان المعجزة اذا ظهرت فانما تكون حجة بان يدعيها من ظهرت عليه ولا تظهر على مدع لها الا وهى معلومة انها من عند الله فاذا كان يظهر وجه الاعجاز فيها للكافة بالتحدى وجب فيها التحدى لانه تزول بذلك الشبهة عن الكل وينكشف للجميع ان العجز واقع عن المعارضة والا فان مقتضى ماقدمناه من الفصل أن من كان يعرف وجوه الخطاب ويتقن مصارف الكلام وكان كاملا فى فصاحته جامعا للمعرفة بوجوه الصناعة لو انه احتج عليه بالقرآن وقيل له ان الدلالة على النبوة والآية على الرسالة ماأتلوه عليك منه لكان ذلك بلاغا فى ايجاب الحجة وتماما فى الزامه فرض المصير اليه ومما يؤكد هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد دعا الآحاد الى الاسلام محتجا عليهم بالقرآن لانا نعلم انه لم يلزمهم تصديقه تقليدا ونعلم ان السابقين الاولين الى الاسلام لم يقلدوه وانما دخلوا على بصيرة ولم نعلمه قال لهم ارجعوا الى جميع الفصحاء فان عجزوا عن الاتيان بمثله فقد ثبتت حجتى بل لما رآهم يعلمون اعجازه ألزمهم حكمه فقبلوه وتابعوا الحق وبادروا اليه مستسلمين ولم يشكوا فى صدقه ولم يرتابوا فى وجه دلالته فمن كانت بصيرته أقوى ومعرفته أبلغ كان الى القبول منه أسبق ومن اشتبه عليه وجه الاعجاز واشتبه عليه بعض شروط المعجزات وأدلة النبوات كان أبطأ الى القبول حتى تكاملت أسبابه واجتمعت له بصيرته وترادفت عليه مواده وهذا فصل يجب ان يتمم القول فيه بعد فليس هذا موضع له ويبين ماقلناه ان هذه الآية علم يلزم الكل قبوله والانقياد له وقد علمنا تفاوت الناس فى ادراكه ومعرفة وجه دلالته لان الاعجمى لايعلم انه معجز الا بأن يعلم عجز العرب عنه وهو يحتاج فى معرفة ذلك الى أمور لايحتاج اليها من كان من أهل صنعة الفصاحة فاذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم وجرى مجراهم فى توجه الحجة عليه وكذلك لا يعرف

المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن مايعرفه العالى فى هذه الصنعة فربما حل فى ذلك محل الاعجمى فى أن لايتوجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهى فى الصنعة عنه وكذلك لايعرف المتناهى فى معرفة الشعر وحده أو الغاية فى معرفة الخطب أو الرسائل وحدهما غور هذا الشأن مايعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام وطرق البراعة فلاتكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه بعجز البارع فى هذه العلوم كلها عنه فأما من كان متناهيا فى معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التى يمكن فيها اظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف اعجازه وان لم نقل ذلك أدى هذا القول الى ان يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يعرف اعجاز القرآن حين أوحى اليه حتى سبر الحال بعجز أهل اللسان عنه وهذا خطأ من القول فصح من هذا الوجه ان النبى صلى الله عليه وسلم حين أوحى اليه القرآن عرف كونه معجزا و بأن قيل له انه دلالة وعلم على نبوتك انه كذلك من قبل ان يقرأه على غيره أو يتحدى اليه سواه ولذلك قلنا ان المتناهى فى الفصاحة والعلم بالاساليب التى يقع فيها التفاصح متى سمع القرآن عرف انه معجز لانه يعرف من حال نفسه انه لايقدر عليه و يعرف من حال غيره مثل مايعرف من حال نفسه فيعلم ان عجز غيره كعجزه هو وان كان يحتاج بعد هذا الى استدلال آخر على انه علم على نبوة ودلالة على رسالة بأن يقال له ان هذه آية لنبيه وانما ظهرت عليه وادعاها معجزة له وبرهانا على صدقه فان قيل فان من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه فكذلك البليغ وان علم عجز نفسه عن مثل القرآن فهو قد يخفى عليه عجز غيره قيل هو مع مستقر العادة وان عجز عن قول الشعر وعلم انه معجز فانه يعلم ان الناس لاينفكون من وجود الشعراء فيهم ومتى علم البليغ المتناهى فى صنوف البلاغات عجزه عن القرآن علم عجز غيره لانه كهو لانه يعلم ان حاله وحال غيره فى هذا الباب سواء اذ ليس فى العادة مثل للقرآن يجوز أو يعلم قدرة أحد من البلغاء عليه فاذا لم يكن لذلك مثل فى العادة وعرف هذا الناظر جميع أساليب الكلام وأنواع الخطاب و وجد القرآن مباينا لها علم خروجه عن العادة وجرى مجرى مايعلم ان اخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات فهو لايجوزه من نفسه وكذلك لايجوز وقوعه من غيره الا على وجه نقض العادة بل يرى وقوعه موقع المعجزة وهذا وان كان يفارق فلق البحر واخراج اليد البيضاء ونحو ذلك من وجه وهو انه يستوى الناس فى معرفة عجزهم عنه فكونه ناقضا للعادة من غير تأمل شديد ولا نظر بعيد فان النظر فى معرفة اعجاز القرآن يحتاج الى تأمل ويفتقر الى مراعاة مقدمات والكشف عن أمور نحن ذاكروها بعد هذا الموضع فكل

واحد منها يؤول الى مثل حكم صاحبه فى الجمع الذى قدمنا ومما يبين ما قلناه من ان البليغ المتناهى فى وجوه الفصاحة يعرف اعجاز القرآن وتكون معرفته حجة عليه اذا تحدى اليه وعجز عن مثله وان لم ينتظر وقوع التحدى فى غيره وما الذى يصنع ذلك الغير وهو ماروى فى الحديث ان جبير بن مطعم ورد على النبى صلى الله عليه وسلم فى معنى حليف له أراد ان يفاديه فدخل والنبى صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة والطور وكتاب مسطور فى صلاة الفجر قال فلما انتهى الى قوله ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع قال خشيت ان يدركنى العذاب فأسلم وفى حديث آخر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع سورة طه فأسلم وقد روى ان قوله عز وجل " فى أول حم السجدة الى قوله فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون نزلت فى شيبة وعتبة ابنى ربيعة وأبى سفيان بن حرب وأبى جهل وذكر انهم بعثوا هم وغيرهم من وجوه قريش بعتبة بن ربيعة الى النبى صلى الله عليه وسلم ليكلمه وكان حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام وأرادوا ان يأتيهم بما عنده فقرأ النبى صلى الله عليه وسلم سورة حم السجدة من أولها حتى انتهى الى قوله فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فوثب مخافة العذاب فاستحكوه ما سمع فذكر انه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد فقال له عثمان بن مظعون لتعلموا انه من عند الله اذ لم يهتد لجوابه وأبين من ذلك قول الله عز وجل " وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه فجعل سماعه حجة عليه بنفسه فدل على ان فيهم من يكون سماعه اياه حجة عليه فان قيل لو كان على ماقلتم لوجب ان يكون حال الفصحاء الذين كانوا فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم على طريقة واحدة فى اسلامهم عند سماعه قيل لا يجب ذلك لان صوارفهم كانت كثيرة منها انهم كانوا يشكون منهم من يشك فى اثبات الصانع وفيهم من يشك فى التوحيد وفيهم من يشك فى النبوة ألا ترى ان أبا سفيان بن حرب لما جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلم عام الفتح قال له النبى عليه السلام أما آن لك ان تشهد ان لا اله الا الله قال بلى فشهد قال أما آن لك ان تشهد انى رسول الله قال أما هذه ففى النفس منها شئ فكانت وجوه شكوكهم مختلفة وطرق شبههم متباينة فمنهم من قلت شبهه وتأمل الحجة حق تأملها ولم يستكبر فأسلم ومنهم من كثرت شبهه وأعرض عن تأمل الحجة حق تأملها أولم يكن فى البلاغة على حدود النهاية فتطاول عليه الزمان الى ان نظر واستبصر وراعى واعتبر واحتاج الى ان يتأمل عجز غيره عن الاتيان بمثله فلذلك وقف أمره ولو كانوا فى الفصاحة على مرتبة واحدة وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة

لتوافقوا الى القبول جملة واحدة فان قيل فكيف يعرف البليغ الذى وصفتموه اعجاز القرآن وما الوجه الذى يتطرق به اليه والمنهاج الذى يسلكه حتى يقف به على جلية الامر فيه قيل هذا سبيله ان يفرد له فصل فان قيل فلم زعمتم ان البلغاء عاجزون عن الاتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم فى أجناس الفصاحات وهلا قلتم ان من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادرا وانما يصرفه الله عنه ضربا من الصرف أو يمنعه من الاتيان بمثله ضربا من المنع أوتقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله من الدلالة ويحصل ماقصده من ايجاب الحجة لان من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما واذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية الى الاولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والسورة فالجواب انه لو صح ذلك صح لكل من أمكنه نظم ربع بيت أومصراع من بيت ان ينظم القصائد ويقول الاشعار وصح لكل ناطق قد يتفق فى كلامه الكلمة البديعة نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة ومعلوم ان ذلك غير سائغ ولاممكن على ان ذلك لو لم يكن معجزا على ماوصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه ووضع من مقدار الفصاحة فى نظمه أبلغ فى الاعجوبة اذا صرفوا عن الاتيان بمثله ومنعوا عن معارضته وعدلت دواعيهم عنه فكان يستغنى عن انزاله على النظم البديع واخراجه فى المعرض الفصيح العجيب على انه لو كانوا صرفوا على ماادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف لانهم لم يتحدوا اليه ولم تلزمهم حجته فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله علم ان ماادّعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان وفيه معنى آخر وهو ان أهل الصنعة فى هذا الشأن اذا سمعوا كلاما مطمعا لم يخف عليهم ولم يشتبه لديهم ومن كان متناهيا فى فصاحته لم يجز ان يطمع فى مثل هذا القرآن بحال فان قال صاحب السؤال انه قد يطمع فى ذلك قيل له أنت تزيد على هذا فتزعم ان كلام الآدمى قد يضارع القرآن وقد يزيد عليه فى الفصاحة ولايتحاشاه ويحسب أن ماألفه فى الجزء والطفرة هو أبدع وأغرب من القرآن لفظا ومعنى ولكن ليس الكلام على مايقدره مقدر فى نفسه ويحسبه ظان من أمره والمرجوع فى هذا الى جملة الفصحاء دون الآحاد ونحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ وغيره فى ذلك عن سائر أجناس الخطاب ليعلم ان مايقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ بين الغلط وان هذا التقدير من جنس من حكى الله تعالى قوله فى محكم كتابه انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر

واستكبر فقال ان هذا الاسحر يؤثر ان هذا الا قول البشر فهم يعبرون عن دعواهم انهم يمكنهم ان يقولوا مثله بأن ذلك من قول البشر لان ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل الى الحد الذى يتجاوز امكان معارضته ومما يبطل ماذكروه من القول بالصرفة انه لو كانت المعارضة ممكنة وانما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا وانما يكون المنع معجزا فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه وليس هذا بأعجب مما ذهب اليه فريق منهم ان الكل قادرون على الاتيان بمثله وانما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا اليه به ولا بأعجب من قول فريق منهم انه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى فى هذا الباب وانه يصح من كل واحد منهما الاعجاز على حد واحد فان قيل فهل تقولون بان غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز كالتوراة والانجيل والصحف قيل ليس شئ من ذلك بمعجز فى النظم والتأليف وان كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الاخبار بالغيوب وانما لم يكن معجزا لان الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن ولانا قد علمنا انه لم يقع التحدى اليه كما وقع التحدى الى القرآن ولمعنى آخر وهو ان ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى الى حد الاعجاز ولكنه يتقارب وقد رأيت أصحابنا يذكرون هذا فى سائر الالسنة و يقولون ليس يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب ويمكن بيان ذلك بأنا لا نجد فى القدر الذى نعرفه من الالسنة للشئ الواحد من الاسماء ما نعرف من اللغة وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على ما تتناوله العربية وكذلك التصرف فى الاستعارات والاشارات ووجوه الاستعمالات البديعة التى يجيء تفصيلها بعد هذا ويشهد لذلك من القرآن ان الله تعالى وصفه بأنه بلسان عربى مبين وكرر ذلك فى مواضع كثيرة و بين انه رفعه عن ان يجعله أعجميا فلو كان يمكن فى لسان العجم ايراد مثل فصاحته لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة وانه وان كان يمكن ان يكون من فائدة قوله انه عربى مبين انه مما يفهمونه ولا يفتقرون فيه الى الرجوع الى غيرهم ولا يحتاجون فى تفسيره الى من سواهم فلا يمتنع ان يفيد ما قلنا أيضا كما أفاد بظاهره ما قدمناه و يبين ذلك ان كثيرا من المسلمين قد عرفوا تلك الالسنة وهم من أهل البراعة فيها و فى العربية فقد وقفوا على انه ليس يقع فيها من التفاضل والفصاحة ما يقع فى العربية * ومعنى آخر وهو انا لم نجد أهل التوراة والانجيل ادّعوا الاعجاز لكتابهم ولا ادّعى لهم المسلمون فعلم ان الاعجاز مما يختص به القرآن و يبين هذا ان الشعر لا يتأتى فى تلك الالسنة على ما قد اتفق فى العربية وان كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها من البديع ما يمكن و يتأتى فى العربية وكذلك لا يتأتى فى الفارسية جميع

الوجوه التي يتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية فان قيل فان المجوس تزعم ان كتاب زرادشت وكتاب مانى معجزان قيل الذى يتضمنه كتاب مانى من طريق النيرنجات وضروب من الشعوذة ليس يقع فيها اعجاز و يزعمون ان فى الكتاب الحكم وهى حكم منقولة متداولة على الالسن لا يختص بها أمة دون أمة وان كان بعضهم أكثر اهتماما بها وتحصيلا لها وجمعا لابوابها وقد ادعى قوم ان ابن المقفع عارض القرآن وانما فزعوا الى الدرة اليتيمة وهما كتابان أحدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل فليس فيها شئ بديع من لفظ ولا معنى والآخر فى شئ من الديانات وقد تهوس فيه بما لا يخفى على متأمل وكتابه الذى بيناه فى الحكم منسوخ من كتاب بزرجمهر فى الحكمة فأى صنع له فى ذلك وأى فضيلة حازها فيما جاء به وبعد فليس يوجد له كتاب يدعى مدع انه عارض فيه القرآن بل يزعمون انه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع واستحيا لنفسه من اظهاره فان كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد ولا يمتنع ان يشتبه عليه الحال فى الابتداء ثم يلوح له رشده ويتبين له أمره وينكشف له عجزه ولو كان بقى على اشتباه الحال عليه لم يخف علينا موضع غفلته ولم يشتبه لدينا وجه شبهته ومتى أمكن ان تدعى الفرس فى شئ من كتبهم انه معجز فى حسن تأليفه وعجيب نظمه

﴿ فصل فى جملة وجوه اعجاز القرآن ﴾

ذكر اصحابنا وغيرهم فى ذلك ثلاثة اوجه من الاعجاز • أحدها يتضمن الاخبار عن الغيوب وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم اليه فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام انه سيظهر دينه على الاديان بقوله عز وجل هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ففعل ذلك وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه اذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من اظهار دينه ليثقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجح وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يفعل كذلك فى أيامه حتى وقف أصحاب جيوشه عليه فكان سعد بن أبى وقاص رحمه الله وغيره من أمراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لاصحابه ويحرضهم به ويوثق لهم وكانوا يلقون الظفر فى موجهاتهم حتى فتح الى آخر أيام عمر رضى الله عنه الى بلخ وبلاد الهند وفتح فى أيامه مرو الشاهجان ومرو الروذ ومنعهم من العبور بجيحون وكذلك فتح فى أيامه فارس الى اصطخر وكرمان ومكران وسجستان وجميع ما كان من مملكة كسرى وكل ما كان يملكه ملوك الفرس بين البحرين من الفرات الى جيحون وأزال ملك

ملوك الفرس فلم يعد الى اليوم ولا يعود أبدا ان شاء الله تعالى ثم الى حدود أرمينية والى باب الابواب وفتح أيضا ناحية الشام والاردن وفلسطين وفسطاط مصر وأزال ملك قيصر عنها وذلك من الفرات الى بحر مصر وهو ملك قيصر وغزت الخيول فى أيامه الى عمورية فأخذ الضواحى كلها ولم يبق دونها الا ماحجز دونه بحر أو حال عنه جبل منيع أو أرض خشنة أو بادية غير مسلوكة وقال الله عز وجل قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد فصدق فيه وقال فى أهل بدر واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم ووفى لهم بما وعد وجميع الآيات التى يتضمنها القرآن من الاخبار عن الغيوب يكثر جدا وانما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل * والوجه الثانى انه كان معلوما من حال النبى صلى الله عليه وسلم انه كان أميا لا يكتب ولا يحسن ان يقرأ وكذلك كان معروفا من حاله انه لم يكن يعرف شيأ من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ثم أتى بجملة ماوقع وحدث من عظيمات الامور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام الى حين مبعثه فذكر فى الكتاب الذى جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام وابتداء خلقه وماصار اليه أمره من الخروج من الجنة ثم جملا من أمر ولده وأحواله وتوبته ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه ومالنتهى اليه أمره وكذلك أمر ابراهيم عليه السلام الى ذكر سائر الانبياء المذكورين فى القرآن والملوك والفراعنة الذين كانوا فى أيام الانبياء صلوات الله عليهم ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لاسبيل اليه الا عن تعلم واذا كان معروفا انه لم يكن ملابسا لأهل الآثار وحملة الاخبار ولامترددا الى التعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه علم أنه لا يصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحى ولذلك قال عز وجل وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون وقال وكذلك نفصل الآيات وليقولوا درست وقد بينا ان من كان يختلف الى تعلم علم ويشتغل بملابسة أهل صنعة لم يخف على الناس أمره ولم يختلف عندهم مذهبه وقد كان يعرف فيهم من يحسن هذا العلم وان كان نادرا وكذلك كان يعرف من يختلف اليه للتعليم وليس يخفى فى العرف عالم كل صنعة ومتعلمها فلو كان منهم لم يخف أمره * والوجه الثالث انه بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه والذى أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التى أطلقوها فالذى يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للاعجاز وجوه منها مايرجع الى الجملة وذلك ان نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم

ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم الى معدل موزون غير مسجع ثم الى مايرسل ارسالا فتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعانى المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وان لم يكن معتدلا فى وزنه وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لايتعمل ولا يتصنع له وقد علمنا ان القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ولا فيه شئ منه وكذلك ليس من قبيل الشعر لان من الناس من زعم أنه كلام مسجع ومنهم من يدعى ان فيه شعرا كثيرا والكلام عليهم يذكر بعد هذا الموضع فهذا اذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة وأنه معجز وهذه خصوصية ترجع الى جملة القرآن وتميز حاصل فى جميعه ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعانى اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب فى البلاغة والتشابه فى البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر وانما تنسب الى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة والى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها مانبينه بعد هذا من الاختلال ويعترضها مانكشفه من الاختلاف ويقع فيها مانبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فأخبر أن كلام الآدمى ان امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال وهذا المعنى هو غير المعنى الاول الذى بدأنا بذكره فتأمله تعرف الفضل وفى ذلك معنى ثالث وهو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام واعذار وانذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الامور فمن الشعراء من يجود فى المدح دون الهجو ومنهم من يبرز فى الهجو دون المدح ومنهم من يسبق فى التقريظ دون التأبين ومنهم من يجود فى التأبين دون التقريظ ومنهم من يغرب فى وصف الابل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف

الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام ولذلك ضرب المثل
بامرئ القيس اذا ركب والنابغة اذا رهب وبزهير اذا رغب ومثل ذلك يختلف فى
الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت
التفاوت فى شعره على حسب الاحوال التى يتصرف فيها فيأتى بالغاية فى البراعة فى معنى
فاذا جاء الى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره ولذلك ضرب المثل بالذين
سميتهم لانه لاخلاف فى تقدمهم فى صنعة الشعر ولاشك فى تبريزهم فى مذهب النظم فاذا
كان الاختلال بينا فى شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه واستغنينا عن ذكر من هو دونهم
وكذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا فى الخطب والرسائل ونحوها ثم نجد فى الشعراء من
يجود فى الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلا ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مهما
تكلفه أو عمله ومن الناس من يجود فى الكلام المرسل فاذا أتى بالموزون قصر ونقص
نقصانا عجيبا ومنهم من يوجد بضد ذلك وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف
فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حد واحد فى حسن النظم وبديع التأليف والرصف
لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا اسفال فيه الى الرتبة الدنيا وكذلك قد
تأملنا ما يتصرف اليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الاعجاز فى
جميعها على حد واحد لا يختلف وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند اعادة ذكر القصة
الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة
فعلمنا بذلك انه مما لا يقدر عليه البشر لان الذى يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت
الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الاسباب التى يتضمن ●
ومعنى رابع وهو ان كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بينا فى الفصل والوصل والعلو
والنزول والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم اليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه
القول عند الضم والجمع ألا ترى ان كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل
من معنى الى غيره والخروج من باب الى سواه حتى ان أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير
البحترى مع جودة نظمه وحسن وصفه فى الخروج من النسيب الى المديح وأطبقوا على أنه
لا يحسنه ولا يأتى فيه بشئ وانما اتفق له فى مواضع معدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن
وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شئ الى شئ والتحول من باب الى باب ونحن
نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة ونبين على أن القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من
الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر
فى الافراد الى حد الآحاد وهذا أمر عجيب تتبين فيه الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج

به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف * ومعنى خامس وهو أن نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الانس والجن فهم يعجزون عن الاتيان بمثله كعجزنا ويقصرون دونه كقصورنا وقد قال الله عز وجل" قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فان قيل هذه دعوى منكم وذلك أنه لا سبيل لنا الى أن نعلم عجز الجن عن مثله وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الاتيان بمثله وان كنا عاجزين كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة وأسباب غامضة دقيقة لا نقدر نحن عليها ولا سبيل لنا لطفها اليها واذا كان كذلك لم يكن الى علم ما ادعيتم سبيل قيل قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عز وجل" وقد يمكن أن يقال ان هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن وما يروون لهم من الشعر ويحكون عنهم من الكلام وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول عنهم والقدر الذي نقلوه قد تأملناه فهو في الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الانس ولعله يقصر عنها ولا يمتنع ان يسمع الناس كلامهم ويقع بينهم وبينهم محاورات في عهد الانبياء صلوات الله عليهم وذلك الزمان مما لا يمتنع فيه وجود ما ينقض العادات على أن القوم الى الآن يعتقدون مخاطبة الغيلان ولهم أشعار محفوظة مروية في دواوينهم قال تأبط شرا

وأدهم قد جبت جلبابه * كما احتابت الكاعب الخيعلا
الى ان حدا الصبح اثناءه * ومزق جلبابه الاليلا
على شيم نار تنورتها * فبت لها مدبرا مقبلا
فأصبحت والغول لي جارة * فياجارتا أنت ما أهولا
وطالبتها بضعها فالتوت * بوجه تهول واستغولا
فمن سال أين ثوت جارتي * فان لها باللوى منزلا
وكنت اذا ماهممت اعتزمت وأحرا اذا قت أن أفعلا

(وقال آخر) عشوا ناري فقلت منون أنتم * فقالوا الجن قلت عموا ظلاما
فقمت الى الطعام فقال منهم * زعيم نحسد الانس الطعاما

ويذكرون لامرئ القيس قصيدة مع عمرو الجني وأشعارا لهما كرهنا ذكرها لطولها وقال عبيد بن أيوب

فلله در الغول أي رفيقة * لصاحب قفر خائف متقفر
أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت * حوالي نيرانا تبوخ وتزهر

وقال ذو الرمة بعد قوله

قدأعسف النازح المجهول معسفه * فى ظل أخضر يدعو هامة البوم
للجن بالليل فى حافاتها زجل * كما تناوح يوم الريح عيشوم
دوية ودجا ليل كانهما * يمّ تراطن فى حافاته الروم

(وقال أيضا)

وكم عرست بعد النوى من معرس * لها من كلام الجن أصوات سامر
(وقال) ورمل عزيف الجن فى عقباته * هزيز كتضراب المغنين بالطبل

واذا كان القوم يعتقدون كلام الجن ومخاطباتهم ويحكون عنهم وذلك القدر المحكى لا يزيد أمره على فصاحة العرب صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه كعجز الانس. ويبين ذلك من القرآن ان الله تعالى حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين الى آخر ما حكى عنهم فيما يتلوه فاذا ثبت انه وصف كلامهم ووافق ما يعتقدونه من نقل خطابهم صح ان يوصف الشئ المألوف بأنه ينحط عن درجة القرآن فى الفصاحة وهذا الجواب أسد عندى من جواب بعض المتكلمين عنه بأن عجز الانس عن القرآن يثبت له حكم الاعجاز فلا يعتبر غيره ألا ترى انه لو عرفنا من طريق المشاهدة عجز الجن عنه فقال لنا قائل فدلوا على ان الملائكة تعجز عن الاتيان بمثله لم يكن لنا فى الجواب غير هذه الطريقة التى قد بيناها واعا ضعفنا هذا الجواب لان الذى حكى وذكر عجز الجن والانس عن الاتيان بمثله فيجب ان نعلم عجز الجن عنه كما علمنا عجز الانس عنه ولو كان وصف عجز الملائكة عنه لوجب ان نعرف ذلك أيضا بطريقه فان قيل أنتم قد انتهيتم الى ذكر الاعجاز فى التفاصيل وهذا الفصل انما يدل على الاعجاز فى الجملة قيل هذا كما انه يدل على الجملة فانه يدل على التفصيل أيضا فصح ان يلحق هذا القبيل كما كان يصح ان يلحق بباب الجمل * ومعنى سادس وهو ان الذى ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار والجمع والتفريق والاستعارة والتصريح والتجوز والتحقيق ونحو ذلك من الوجوه التى توجد فى كلامهم موجود فى القرآن وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم فى الفصاحة والابداع والبلاغة وقد ضمنا بيان ذلك بعد لان الوجه ههنا ذكر المقدمات دون البسط والتفصيل * ومعنى سابع وهو ان المعانى التى تتضمن فى أصل وضع الشريعة والاحكام والاحتجاجات فى أصل الدين والرد على الملحدين على تلك الالفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضا فى اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع ذلك انه قد علم ان تخير الالفاظ للمعانى المتداولة المألوفة والاسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الالفاظ لمعان

مبتكرة وأسباب مؤسسة مستحدثة فلو أبرع اللفظ فى المعنى البارع كان ألطف وأعجب من ان يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول المتكرر والامر المتقرر المتصور ثم ان انضاف الى ذلك التصرف البديع فى الوجوه التى تتضمن تأييد مايبتدأ تأسيسه ويراد تحقيقه بان التفاضل فى البراعة والفصاحة ثم اذا وجدت الالفاظ وفق المعنى والمعانى وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر فالبراعة أظهر والفصاحة أتم * ومعنى ثامن وهو ان الكلام يبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة فى تضاعيف كلام أو تقذف مابين شعر فتأخذه الاسماع وتتشوف اليه النفوس ويرى وجه رونقه باديا غامرا سائر مايقرن به كالدرة التى ترى فى سلك من خرز وكالياقوتة فى واسطة العقد وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها فى تضاعيف كلام كثير وهى غرة جميعه وواسطة عقده والمنادى على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله واعتراضه فى جنسه ومائه وهذا الفصل أيضا مما يحتاج فيه الى تفصيل وشرح ونص ليتحقق ماادعيناه منه ولولا هذه الوجوه التى بيناها لم يتحير فيه أهل الفصاحة ولكانوا يفزعون الى التمحل للقابلة والتصنع للمعارضة وكانوا ينظرون فى أمرهم ويراجعون أنفسهم أوكان يراجع بعضهم بعضا فى معارضته ويتوقفون لها فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك علم ان أهل المعرفة منهم بالصنعة انما عدلوا عن هذه الامور لعلمهم بعجزهم عنه وقصور فصاحتهم دونه ولا يمتنع ان يلتبس على من لم يكن بارعا فيهم ولا متقدما فى الفصاحة منهم هذه الحال حتى لا يعلم الا بعد نظر وتأمل وحتى يعرف حال عجز غيره الا انا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا ولم يشتغلوا بذلك تحققا بظهور العجز وتبيناله وأما قوله تعالى حكاية عنهم قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا فقد يمكن ان يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم وقد يمكن ان يكون هذا الكلام انما خرج منهم وهو يدل على عجزهم ولذلك أورده الله مورد تقريعهم لانه لو كانوا على ماوصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد الى الانجاز والضمان الى الوفاء فلما لم يستعملوا ذلك مع استمرار التحدى وتطاول زمان الفسحة فى اقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه علم عجزهم اذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط ومعلوم من حالهم وحميتهم ان الواحد منهم يقول فى الحشرات والهوام والحيات وفى وصف الازمة والانساع والامور التى لا يؤبه لها ولا يحتاج اليها ويتنافسون فى ذلك أشد التنافس ويتبجحون به أشد التبجح فكيف يجوز ان تمكنهم معارضته فى هذه المعانى الفسيحة والعبارات الفصيحة مع تضمن المعارضة تكذيبه والذب عن أديانهم القديمة واخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم وتضليله اياهم والتخلص من منازعته ثم من محاربته ومقارعته ثم لا يفعلون شيأ من ذلك وانما

يحيلون أنفسهم على التعاليل ويعللونها بالاباطيل * ومعنى تاسع وهو ان الحروف التي بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة وجملة ماذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفا ليدل بالمذكور على غيره وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم والذي ينقسم اليه هذه الحروف على ماقسمه أهل العربية وبنوا عليها وجوهها أقسام نحن ذاكروها * فمن ذلك انهم قسموها الى حروف مهموسة وأخرى مجهورة فالمهموسة منها عشرة وهي الحاء والهاء والخاء والكاف والشين والثاء والفاء والتاء والصاد والسين وماسوى ذلك من الحروف فهي مجهورة وقدعرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لازيادة ولانقصان والمجهور معناه أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت والمهموس كل حرف ضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس وذلك مما يحتاج الى معرفته لتبتني عليه أصول العربية وكذلك مما يقسمون اليه الحروف يقولون انها على ضربين أحدهما حروف الحلق وهي ستة أحرف العين والحاء والهمزة والهاء والخاء والغين والنصف من هذه الحروف مذكور في جملة الحروف التي تشتمل عليها الحروف المبنية في أوائل السور وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الحلق وكذلك تنقسم هذه الحروف الى قسمين آخرين أحدهما حروف غير شديدة والى الحروف الشديدة وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه وهي الهمزة والقاف والكاف والجيم والظاء والدال والطاء والباء وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضا هي مذكورة في جملة تلك الحروف التي بني عليها تلك السور ومن ذلك الحروف المطبقة وهي أربعة أحرف وماسواها منفتحة فالمطبقة الطاء والظاء والضاد والصاد وقدعلمنا أن نصف هذه في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور واذا كان القوم الذين قسموا في الحروف هذه الاقسام لاغراض لهم في ترتيب العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ورأوا مباني اللسان على هذه الجهة وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على مالم يذكر على حد التنصيف الذي وصفنا دل على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه بعد العهد الطويل لايجوز أن يقع الامن الله عز وجل" لان ذلك يجري مجرى علم الغيوب وان كان انما نبهوا على مابني عليه اللسان في أصله ولم يكن لهم في التقسيم شئ وانما التأثير لمن وضع أصل اللسان فذلك أيضا من البديع

الذى يدل على ان أصل وضعه وقع موقع الحكمة التى يقصر عنها اللسان فان كان أصل اللغة توقيفا فالامر فى ذلك أبين وان كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضا لانه لايصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا الا بأمر من عند الله تعالى وكل ذلك يوجب اثبات الحكمة فى ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الاعجاز من وجه وقد يمكن ان تعاد فاتحة كل سورة لفائدة تخصها فى النظم اذا كانت حروفا كنحو الم لان الالف المبدوء بها هى أقصاها مطلعا واللام متوسطة والميم متطرفة لانها تأخذ فى الشفة فنبه بذكرها على غيرها من الحروف وبين انه انما أتاهم بكلام منظوم مما يتعارفون من الحروف التى تردد بين هذين الطرفين ويشبه أن يكون التنصيف وقع فى هذه الحروف دون الالف لان الالف قد تلغى وقد تقع الهمزة وهى موقعا واحدا *ومعنى عاشر وهو انه سهل سبيله فهو خارج عن الوحشى المستكره والغريب المستنكر وعن الصنعة المتكلفة وجعله قريبا الى الافهام يبادر معناه لفظه الى القلب ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول غير مطمع مع قربه فى نفسه ولا موهم مع دنوه فى موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به فأما الانحطاط عن هذه الرتبة الى رتبة الكلام المبتذل والقول المسفسف فليس يصح ان تقع فيه فصاحة أو بلاغة فيطلب فيه التمنع أو يوضع فيه الاعجاز ولكن لو وضع فى وحشى مستكره أو غمر بوجوه الصنعة وأطبق بأبواب التعسف والتكلف لكان لقائل ان يقول فيه ويعتذر ويعيب ويقرع ولكنه أوضح مناره وقرب منهاجه وسهل سبيله وجعله فى ذلك متشابها امتماثلا وبين مع ذلك اعجازهم فيه وقد علمت ان كلام فصحائهم وشعر بلغائهم لا ينفك من تصرف فى غريب مستنكر أو وحشى مستكره ومعان مستبعدة ثم عدولهم الى كلام مبتذل وضيع لا يوجد دونه فى الرتبة ثم تحولهم الى كلام معتدل بين الامرين متصرف بين المنزلتين فمن شاء ان يتحقق هذا نظر فى قصيدة امرئ القيس * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * ونحن نذكر بعد هذا على التفصيل ما يتصرف اليه هذه القصيدة ونظائرها ومنزلتها من البلاغة ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلها على وجه يؤخذ باليد ويتناول من كثب ويتصور فى النفس كتصور الاشكال ليبين ما ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن واعلم ان من قال من أصحابنا ان الاحكام معللة بعلل موافقة مقتضى العقل جعل هذا وجها من وجوه الاعجاز وجعل هذه الطريقة دلالة فيه كنحو ما يعللون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها اولهم فى كثير من تلك العلل طرق قريبة ووجوه تستحسن وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك ولكن الاصل الذى يبنون عليه عندنا غير مستقيم وفى ذلك كلام يأتى فى كتابنا فى الاصول وقد يمكن فى

تفاصيل ماأوردنا من المعانى الزيادة والافرادفاناجمعنابين أمور وذكرنا المزية المتعلقة بها
وكل واحد من تلك الامور مما قديمكن اعتماده فى اظهار الاعجاز فيه فان قيل فهل تزعمون
انه معجز لانه حكاية لكلام القديم سبحانه أولانه عبارة عنه أولانه قديم فى نفسه قيل لسنا
نقول بأن الحروف قديمة فكيف يصح التركيب على الفاسد ولانقول أيضا ان وجه الاعجاز
فى نظم القرآن أنه حكاية عن الكلام القديم لانه لو كان كذلك لكانت التوراة والانجيل
وغيرهما من كتب الله عز وجل معجزات فى النظم والتأليف وقد بينا أن اعجازها فى غير
ذلك وكذلك كان يجب ان تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها ومتفردها وقد ثبت
خلاف ذلك

﴿ فصل فى شرح مابينا من وجوه اعجاز القرآن ﴾

فأما الفصل الذى بدأنا بذكره من الاخبار عن الغيوب والصدق والاصابة فى ذلك كله فهو
كقوله تعالى قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو
يسلمون فأغزاهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما الى قتال العرب والفرس والروم وكقوله
الم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين وراهن أبو
بكر الصديق رضى الله عنه فى ذلك وصدق الله وعده وكقوله فى قصة أهل بدر سيهزم الجمع
ويولون الدبر وكقوله لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله
آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لاتخافون وكقوله واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها
لكم فى قصة أهل بدر وكقوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم
فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد
خوفهم أمنا وصدق الله تعالى وعده فى كل ذلك وقال فى قصة المتخلفين عنه فى غزوته لن
تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا فحق ذلك كله وصدق ولم يخرج من المخالفين الذين
خوطبوا بذلك معه أحد وكقوله ليظهره على الدين كله وكقوله قل تعالوا ندع أبناءنا
وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين فامتنعوا
من المباهلة ولو أجابوا اليها اضطرمت عليهم الاودية نارا على ماذكر فى الخبر وكقوله قل ان
كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولن
يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم ولو تمنوه لوقع بهم فهذا وماأشبهه فصل ❊ وأما الوجه الثانى
الذى ذكرناه من اخباره عن قصص الاولين وسير المتقدمين فمن العجيب الممتنع على من لم
يقف على الاخبار ولم يشتغل بدرس الآثار وقد حكى فى القرآن تلك الامور حكاية

من شهدها وحضرها ولذلك قال الله تعالى وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون وقال وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين وقال وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك فبين وجه دلالته من اخباره بهذه الامور الغائبة السالفة وقال تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا الآية فأما الكلام في الوجه الثالث وهو الذي بيناه من الاعجاز الواقع في النظم والتأليف والرصف فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوها منها انا قلنا انه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم ومباين لاساليب خطابهم ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من ان يصحح انه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى لان قوما من كفار قريش ادعوا انه شعر ومن الملحدة من يزعم ان فيه شعرا ومن أهل الملة من يقول انه كلام مسجع الا انه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم ومنهم من يدعى انه كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب

فصل في نفي الشعر من القرآن

قد علمنا ان الله تعالى نفى الشعر من القرآن ومن النبي صلى الله عليه وسلم فقال وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين وقال في ذم الشعراء والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر انهم في كل واد يهيمون الى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات فقال وما هو بقول شاعر وهذا يدل على ان ما حكاه عن الكفار من قولهم انه شاعر وان هذا شعر لا بد من ان يكون محمولا على انهم نسبوه في القرآن الى ان الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الاعاريض المحصورة المألوفة أو يكون محمولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم اياهم بالشعر لدقة نظرهم في وجوه الكلام وطرق لهم في المنطق وان كان ذلك الباب خارجا عما هو عند العرب شعر على الحقيقة أو يكون محمولا على انه أطلق من بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر وهذا أبعد الاحتمالات فان حمل على الوجهين الاولين كان ما أطلقوه صحيحا وذلك ان الشاعر يفطن لما لا يفطن له غيره واذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه في رأيهم وعندهم أقدر فنسبوه الى ذلك لهذا السبب فان زعم زاعم انه قد وجد في القرآن شعرا كثيرا فمن ذلك ما يزعمون انه بيت تام أو أبيات تامة ومنه ما يزعمون انه مصراع كقول القائل

قد قلت لما حاولوا سلوتي * هيهات هيهات لما توعدون

ومما يزعمون انه بيت قوله

وجفان كالجواب * وقدور راسيات

قالوا هو من الرمل من البحر الذى قيل فيه

ساكن الريح نطو * ف المزن منضل العزالى

وكقوله من تزكى فانما * يتزكى لنفسه

كقول الشاعر من بحر الخفيف

كل يوم بشمسه * وغد مثل أمسه

وكقوله عز وجل

ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب

قالوا هو من المتقارب وكقوله

ودانية عليهم ظلالها * وذللت قطوفها تذليلا

ويشبعون حركة الميم فيزعمون انه من الرجز وذكر عن أبي نواس انه ضمن ذلك شعرا وهو قوله

وفتية فى مجلس وجوههم * ريحانهم قد عدموا التثقيلا

دانية عليهم ظلالها * وذللت قطوفها تذليلا

وقوله عز وجل

ويخزهم وينصركم عليهم * ويشف صدور قوم مؤمنينا

زعموا انه من الوافر كقول الشاعر

لنا غنم نسوقها غزار * كأن قرون جلتها عصى

وكقوله عز وجل

أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم

ضمنه أبو نواس فى شعره ففصل وقال فذاك الذى وشعره

وقرا معلنا ليصدع قلبى * والهوى يصدع الفؤاد السقيما

أرأيت الذى يكذب بالدين فذاك الذى يدع اليتيما

وهذا من الخفيف كقول الشاعر

وفؤادى كعهده بسليمى * بهوى لم يحل ولم يتغير

وكما ضمنه فى شعره من قوله

سبحان من سخر هذا لنا * حقا وما كنا له مقرنين

فزاد فيه حتى انتظم له الشعر وكما يقولونه فى قوله عز وجل والعاديات ضبحا فالموريات قدحا

ونحو ذلك فى القرآن كثير كقوله والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا وهو عندهم شعر من بحر البسيط والجواب عن هذه الدعوى التى ادعوها من وجوه أولها ان الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن لو كانوا يعتقدونه شعرا ولم يروه خارجا عن أساليب كلامهم لبادروا الى معارضته لان الشعر مسخر لهم سهل عليهم لهم فيه ما قد علمت من التصرف العجيب والاقتدار اللطيف فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك ولا عولوا عليه علم انهم لم يعتقدوا فيه شيأ مما يقدره الضعفاء فى الصنعة والمرمدون فى هذا الشأن وان استدراك من يجيء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة فى ذلك الزمان و بلغائهم وخطبائهم و زعمه انه قد ظفر بشعر فى القرآن ذهب أولئك النفر عنه وخفى عليهم مع شدة حاجاتهم الى الطعن فى القرآن والغض منه والتوصل الى تكذيبه بكل ما قدروا عليه فلن يجوز ان يخفى على أولئك وان يجهلوه و يعرفه من جاء الآن وهو بالجهل حقيق واذا كان كذلك علم ان الذى أجاب به العلماء عن هذا السؤال شديد وهو انهم قالوا ان البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا وأقل الشعر بيتان فصاعدا والى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الاسلام وقالوا أيضا انما كان على وزن بيتين الا انه يختلف رويهما وقافيتهما فليس بشعر ثم منهم من قال ان الرجز ليس بشعر أصلا لا سيما اذا كان مشطورا أو منهوكا وكذلك ما كان يقارنه فى قلة الاجزاء وعلى هذا يسقط السؤال ثم يقولون ان الشعر انما يطلق متى قصد القاصد اليه على الطريق الذى يتعمد و يسلك ولا يصح ان يتفق مثله الا من الشعراء دون ما يستوى فيه العامى والجاهل والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم شاعر لانه لو صح ان يسمى كل من اعترض فى كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر أو تنتظم انتظام بعض الاعاريض كان الناس كلهم شعراء لان كل متكلم لا ينفك من ان يعرض فى جملة كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر و ينتظم انتظامه ألا ترى ان العامى قد يقول لصاحبه أغلق الباب وائتنى بالطعام و يقول الرجل لاصحابه اكرموا من لقيتم من تميم ومتى تتبع الانسان هذا عرف انه يكثر فى تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه وهذا القدر الذى يصح فيه التوارد ليس يعده أهل الصناعة سرقة اذا لم تعلم فيه حقيقة الاخذ كقول امرئ القيس

وقوفا بها صحبى على مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتحمل

وكقول طرفة وقوفا بها صحبى على مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ومثل هذا كثير فاذا صح مثل ذلك فى بعض البيت ولم يمتنع التوارد فيه فكذلك لا يمتنع وقوعه فى الكلام المنثور اتفاقا غير مقصود اليه فاذا اتفق لم يكن ذلك شعرا وكذلك يمتنع

التوارد على بيتين وكذلك يمتنع فى الكلام المنثور وقوع البيتين ونحوهما فثبت بهذا ان ماوقع هذا الموقع لم يعد شعرا وانما يعد شعرا ما اذا قصده صاحبه تأتى له ولم يمتنع عليه فاذا كان هو مع قصده لا يتأتى له وانما يعرض فى كلامه عن غير قصد اليه لم يصح ان يقال انه شعر ولا ان صاحبه شاعر ولا يصح ان يقال ان هذا يوجب ان مثل هذا لو اتفق من شاعر فيجب ان يكون شعرا لانه لو قصده لكان يتأتى منه وانما لم يصح ذلك لان ماليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعرا من أحد وما كان شعرا من أحد من الناس كان شعرا من كل أحد ألا ترى ان السوقى قد يقول اسقنى الماء ياغلام سريعا وقد يتفق ذلك من الساهى ومن لا يقصد النظم فأما الشعر اذا بلغ الحد الذى بينا فلا يصح ان يقع الا من قاصد اليه فأما الرجز فانه يعرض فى كلام العوام كثيرا فاذا كان بيتا واحدا فليس ذلك بشعر وقد قيل ان أقل مايكون منه شعرا أربعة أبيات بعد ان يتفق قوافيها ولم يتفق ذلك فى القرآن بحال فأما دون أربعة أبيات منه أو ما يجرى مجراه فى قلة الكلمات فليس بشعر وما اتفق فى ذلك من القرآن مختلف الروى ويقولون انه متى اختلف الروى خرج من ان يكون شعرا وهذه الطرق التى سلكوها فى الجواب معتمدة أو أكثرها ولو كان ذلك شعرا لكانت النفوس تتشوف الى معارضته لان طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد وأهله يتقاربون فيه أو يضربون فيه بسهم فان قيل فى القرآن كلام موزون كوزن الشعر وان كان غير مقفى بل هو مزاوج متساوى الضروب وذلك آخر أقسام كلام العرب قيل من سبيل الموزون من كلام ان يتساوى أجزاؤه فى الطول والقصر والسواكن والحركات فان خرج عن ذلك لم يكن موزونا كقوله رب أخ كنت به مغتبطا أشد كفى بعرا صحبته تمسكامنى بالود ولا أحسبه يزهد فى ذى أمل تمسكا منى بالود ولا أحسبه يغير العهد ولا يحول عنه أبدا نخاب فيه أملى وقد علمنا ان هذا القرآن ليس من هذا القبيل بل هذا قبيل غير ممدوح ولا مقصود من جملة الفصيح وربما كان عندهم مستنكرا بل أكثره على ذلك وكذلك ليس فى القرآن من الموزون الذى وصفناه أولا وهو الذى شرطنا فيه التعادل والتساوى فى الاجزاء غير الاختلاف الواقع فى التقفية ويبين ذلك ان القرآن خارج عن الوزن الذى بينا وتتم فائدته بالخروج منه وأما الكلام الموزون فان فائدته تتم بوزنه

فصل فى نفى السجع من القرآن

ذهب أصحابنا كلهم الى نفى السجع من القرآن وذكره أبو الحسن الاشعرى فى غير موضع

من كتبه وذهب كثير ممن يخالفهم الى اثبات السجع فى القرآن وزعموا ان ذلك مما يبين به فضل الكلام وانه من الاجناس التى يقع بها التفاضل فى البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاق الكل على ان موسى أفضل من هرون عليهما السلام ولمكان السجع قيل فى موضع هرون وموسى ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون قيل موسى وهرون قالوا هذا يفارق أمر الشعر لانه لا يجوز ان يقع فى الخطاب الا مقصودا اليه واذا وقع غير مقصود اليه كان دون القدر الذى يسمى شعرا وذلك القدر ما يتفق وجوده من المفحم كما يتفق وجوده من الشاعر وأما ما فى القرآن من السجع فهو كثير لا يصح ان يتفق كله غير مقصود اليه ويبنون الامر فى ذلك على تحديد معنى السجع قال أهل اللغة هو موالاة الكلام على وزن واحد قال ابن دريد سجعت الحمامة معناها رددت صوتها وأنشد

طربت فأبكتك الحمام السواجع ﴿ تميل بها ضحوا غصون نوائع

النوائع الموائل من قولهم جائع نائع أى متمايل ضعفا وهذا الذى يزعمونه غير صحيح ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك اعجاز ولو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم ان يقولوا شعر معجز وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر لان الكهانة تنافى النبوات وليس كذلك الشعر وقد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال للذين جاؤه وكلموه فى شأن الجنين كيف ندى من لا أكل ولا شرب ولا صاح فاستهل أليس دمه قد بطل فقال أسجاعة كسجاعة الجاهلية وفى بعضها أسجعا كسجع الكهان فرأى ذلك مذموما لم يصح ان يكون فى دلالته والذى يقدرونه انه سجع فهو وهم لانه قد يكون الكلام على مثال السجع وان لم يكن سجعا لان ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لان اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى وفصل بين ان ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت افادة السجع كافادة غيره ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى فان قيل فقد يتفق فى القرآن ما يكون من القبيلين جميعا فيجب ان تسموا أحدهما سجعا قيل الكلام فى تفصيل هذا خارج عن غرض كتابنا والا كنا نأتى على فصل فصل من أول القرآن الى آخره ونبين فى الموضع الذى يدعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا يخفى ولكنه خارج عن غرض

كابنا وهذا القدر يحقق الفرق بين الموضعين ثم ان سلم لهم مسلم موضعا أو مواضع معدودة وزعم ان وقوع ذلك موقع الاستراحة في الخطاب الى الفواصل لتحسين الكلام بها وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام وزعم ان الوجه في ذلك انه من باب الفواصل أو زعم ان ذلك وقع غير مقصود اليه وان ذلك اذا اعترض في الخطاب لم يعد سجعا على ماقد بينا من القليل من الشعر كالبيت الواحد والمصراع والبيتين من الرجز ونحو ذلك يعرض فيه فلا يقال انه شعر لانه لا يقع مقصودا اليه وانما يقع مغمورا في الخطاب فكذلك حال السجع الذي يزعمونه ويقدرونه ويقال لهم لو كان الذي في القرآن على ماتقدرونه سجعا لكان مذموما مرذولا لان السجع اذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط متى أخل به المتكلم أوقع الخلل في كلامه ونسب الى الخروج عن الفصاحة كما ان الشاعر اذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا وكان شعره مرذولا وربما أخرجه عن كونه شعرا وقد علمنا ان بعض مايدعونه سجعا متقارب الفواصل متداني المقاطع وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الاول بعد كلام كثير وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود فان قيل متى خرج السجع المعتدل الى نحو ماذكرتموه خرج من ان يكون سجعا وليس على المتكلم ان يلتزم ان يكون كلامه كله سجعا بل يأتي به طورا ثم يعدل عنه الى غيره ثم قد يرجع اليه قيل متى وقع أحد مصراعي البيت مخالفا للآخر كان تخليطا وخبطا وكذلك متى اضطرب احد مصراعي الكلام المسجع وتفاوت كان خبطا وعلم ان فصاحة القرآن غير مذمومة في الاصل فلا يجوز ان يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب ولو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحيروا فيه وكانت الطباع تدعو الى المعارضة لان السجع غير ممتنع عليهم بل هو عادتهم فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة وهو غير خارج عنها ولا مميز منها وقد يتفق في الشعر كلام على منهاج السجع وليس بسجع عندهم وذلك نحو قول البحتري

تشكى الوجى والليل ملتبس الدجا * غريرية الانساب مرت نقيعها

وقوله قريب المدى حتى يكون الى الندى * عدو البنا حتى يكون معالى

ورأيت بعضهم يرتكب هذا فيزعم انه سجع مداخل ونظيره من القرآن قوله تعالى ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم وقوله أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وقوله أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله وقوله التوراة والانجيل ورسولا الى بني اسرائيل وقوله اني وهن العظم مني ولو كان ذلك عندهم سجعا لم يتحيروا فيه ذلك التحير حتى سماه بعضهم سحرا وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به ويصرفونه اليه ويتوهمونه فيه

وهم فى الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه وليس القوم بعاجزين عن تلك الاساليب المعتادة عندهم المألوفة لديهم والذى تكلمنا به فى هذا الفصل كلام على جملة دون التفصيل ونحن نذكر بعد هذا فى التفصيل مايكشف عن مباينة ذلك وجوه السجع ومن جنس السجع المعتاد عندهم قول أبى طالب لسيف بن ذى يزن أنبتك منبتا طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله و بسق فرعه ونبت زرعه فى أكرم موطن وأطيب معدن وما يجرى هذا المجرى من الكلام والقرآن مخالف لنحو هذه الطريقة مخالفته للشعر وسائر أصناف كلامهم الدائر بينهم ولا معنى لقولهم ان ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد وروى غير مختلف لان ماجرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاق وحده ولو بنى عليه لكان الشعر سجعا لان رويه يتفق ولا يختلف وتتردد القوافى على طريقة واحدة وأما الامور التى يستريح اليها الكلام فانها تختلف فربما كان ذلك يسمى قافية وذلك انما يكون فى الشعر وربما كان ماينفصل عنده الكلامان يسمى مقاطع السجع وربما سمى ذلك فواصل وفواصل القرآن مما هو مختص بها لا شركة بينه وبين سائر الكلام فيها ولا تناسب وأما ماذكروه من تقديم موسى على هرون عليهما السلام فى موضع وتأخيره عنه فى موضع لمكان السجع ولتساوى مقاطع الكلام فليس بصحيح لان الفائدة عندنا غير ماذكروه وهى ان اعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا من الامر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة وتتبين فيه البلاغة وأعيد كثير من القصص فى مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة ونبهوا بذلك على عجزهم عن الاتيان بمثله مبتدأ به ومكررا ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظهم تؤدى تلك المعانى ونحوها وجعلوها بازاء ماجاء به وتوصلوا بذلك الى تكذيبه والى مساواته فيما جاء به كيف وقد قال لهم فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها اظهار الاعجاز على الطريقين جميعا دون التسجيع الذى توهموه فان قال قائل القرآن مختلط من أوزان كلام العرب ففيه من جنس خطبهم ورسائلهم وسجعهم وموزون كلامهم الذى هو غير مقفى ولكنه أبدع فيه ضربا من الابداع لبراعته وفصاحته قيل قد علمنا ان كلامهم ينقسم الى نظم ونثر وكلام مقفى غير موزون ونظم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع ونظم مقفى موزون له روى ومن هذه الاقسام ماهو سجية الاغلب من الناس فتناوله أقرب وسلوكه لا يتعذر ومنه ماهو أصعب تناولا كالموزون عند بعضهم أو الشعر عند الآخرين وكل هذه الوجوه لا تخرج عن ان يقع لهم بأحد أمرين اما بتعمل أو بتكلف وتعلم وتصنع أو باتفاق من الطبع وقذف من النفس على اللسان للحاجة اليه ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من

الطبائع لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم و يتعرض على ألسنتهم وتجيش به خواطرهم ولا ينصرف عند الكل مع شدة الدواعي اليه ولو كان طريقه التعلم لتصنعوه ولتعلموه فالمهلة لهم فسيحة والامد واسع وقد اختلفوا في الشعر كيف اتفق لهم فقد قيل انه اتفق في الاصل غير مقصود اليه على مايعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام ثم لما استحسنوه واستطابوه و رأوا انه تألفه الاسماع وتقبله النفوس تتبعوه من بعد وتعاطوه وحكى لي بعضهم عن أبي عمرو غلام ثعلب عن ثعلب ان العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن * قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * ويسمون ذلك الوضع الميتر واشتقاقه من المتر وهو الجذب أو القطع يقال مترت الحبل بمعنى قطعته أو جذبته ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره فيحتمل ماقاله وأما ماوقع السبق اليه فيشبه أن يكون على ماقدمناذكره أولا وقد يحتمل على قول من قال بأن اللغة اصطلاح انهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم وقد يمكن ان يقال مثله على المذهب الآخر وانهم وقفوا على مايتصرف اليه القول من وجوه التفاصح أوتوافقوا بينهم على ذلك و يمكن ان يقال ان التواضع وقع على أصل الباب وكذلك التوقيف ولم يقع على فنون تصرف الخطاب وان الله تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظم ماأجرى وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد و بنوا عليه وطلبوه ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الاضطراب بوزنها وتهش النفوس اليها وجمع دواعيهم وخواطرهم على استحسان وجوه من ترتيبها واختيار طرق من تنزيلها وعرفهم محاسن الكلام ودلهم على كل طريقة عجيبة ثم أعلمهم عجزهم عن الاتيان بالقرآن والقدر الذي يتناهى اليه قدرهم هو مالم يخرج عن لغتهم ولم يشذ من جميع كلامهم بل قد عرض في خطابهم و وجدوا ان هذا انما تعذر عليهم مع التحدي والتقريع الشديد والحاجة الماسة اليه مع علمهم بطريق وضع النظم والنثر وتكامل أحوالهم فيه دل على انه اختص به ليكون دلالة على النبوة ومعجزة على الرسالة ولولا ذلك لكان القوم اذا اهتدوا في الابتداء الى وضع هذه الوجوه التي يتصرف اليها الخطاب على براعته وحسن انتظامه فلان يقدروا بعد التنبيه على وجهه والتحدي اليه أولى ان يبادروا اليه لو كان لهم اليه سبيل فلو كان الامر على ماذكره السائل لوجب أن لايتحيروا في أمرهم ولا تدخل عليهم شبهة فيما نابهم ولكانوا يسرعون الى الجواب ويبادرون الى المعارضة ومعلوم من حالهم ان الواحد منهم يقصد الى الامور البعيدة عن الوهم والاسباب التي لايحتاج اليها فيكثر فيها من شعر ورجز ونجد من يعينه على نقله عنه على ماقدمناذكره من وصف الابل ونتاجها وكثير من أمرها لافائدة في الاشتغال به في دين ولادنيا ثم كانوا يتفاخرون بالالسن والذلاقة والفصاحة والدراية

ويتنافرون فيه وتجرى بينهم فيه الاسباب المنقولة فى الآثار على مالايخفى على أهله فاستدللنا بتحيرهم فى أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم ووقوعه موقعا يخرق العادات وهذه سبيل المعجزات فبان بما قلنا ان الحروف التى وقعت فى الفواصل متناسبة موقع النظائر التى تقع فى الاسجاع لايخرجها عن حدها ولا يدخلها فى باب السجع وقد بينا أنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء فكان بعض مصاريعه كلمتين وبعضها تبلغ كلمات ولايرون فى ذلك فصاحة بل يرونه عجزا فلو رأوا ان ماتلى عليهم من القرآن سجعا لقالوا نحن نعارضه بسجع معتدل فنزيد فى الفصاحة على طريقة القرآن ونتجاوز حده فى البراعة والحسن ولامعنى لقول من قدر أنه ترك السجع تارة الى غيره ثم رجع اليه لان ماتخلل بين الامرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ماقدروه من التسجيع لانه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته وأبعد غاياته ولا بد لمن جوز السجع فيه وسلك ماسلكوه من ان يسلم ماذهب اليه النظام وعباد بن سلمان وهشام القرطى ويذهب مذهبهم فى انه ليس فى نظم القرآن وتأليفه اعجاز وانه يمكن معارضته وانما صرفوا عنه ضربا من الصرف ويتضمن كلامه تسليم الخبط فى طريقة النظم وانه منتظم من فرق شتى ومن أنواع مختلفة ينقسم اليها خطابهم ولايخرج عنها ويستهين ببديع نظمه وعجيب تأليفه الذى وقع التحدى اليه وكيف يعجزهم الخروج عن السجع والرجوع اليه وقد علمنا عادتهم فى خطبهم وكلامهم انهم كانوا لايلزمون أبدا طريقة السجع والوزن بل كانوا يتصرفون فى أنواع مختلفة فاذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة بين نظمى الكلامين

فصل فى ذكر البديع من الكلام

ان سأل سائل فقال هل يمكن ان يعرف اعجاز القرآن من جهة مايتضمنه من البديع قيل ذكر أهل الصنعة ومن صنف فى هذا المعنى من صفة البديع ألفاظا نحن نذكرها ثم نبين ماسألوا عنه ليكون الكلام واردا على أمر مبين مقرر وباب مصور ذكروا ان من البديع فى القرآن قوله عز ذكره واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقوله وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم وقوله واشتعل الرأس شيبا وقوله وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذاهم مظلمون وقوله أو يأتيهم عذاب يوم عقيم وقوله نور على نور وقد يكون البديع من الكلمات الجامعة الحكمية كقوله ولكم فى القصاص حياة وفى الالفاظ الفصيحة كقوله فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا وفى الالفاظ الالهية كقوله وله كل شئ وقوله ومابكم من نعمة فمن الله وقوله لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ويذكرون من البديع من قول النبى صلى الله عليه وسلم

خير الناس رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار اليها وقوله ربنا تقبل توبتى واغسل حوبتى وقوله غلب عليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء وهى الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر وكقوله الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة وكقوله وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم الا حصائد ألسنتهم وكقوله ان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم وكقول أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى كلام له قد نقلناه بعد هذا على وجهه وقوله لخالد بن الوليد احرص على الموت توهب لك الحياة وقوله فر من الشرف يتبعك الشرف وكقول على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه فى كتابه الى ابن عباس وهو عامله على البصرة أرغب راغبهم واحلل عقدة الخوف عنهم وقوله حين سئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم انما قال ذلك والدين فى قل فأما وقد اتسع نطاق الاسلام فكل امرئ وما اختار وسأل على رضى الله عنه بعض كبراء فارس عن أحمد ملوكهم عندهم فقال لاردشير فضيلة السبق غير ان أحمدهم أنوشروان قال فأى أخلاقه كان أغلب عليه قال الحلم والاناة فقال على رضى الله عنه هما توأمان ينتجهما علو الهمة وقال قيمة كل امرئ ما يحسن وقال العلم قفل ومفتاحه المسئلة وكتب خالد بن الوليد الى مرازبة فارس أما بعد فالحمد لله الذى فض خدمتكم وفرق كلمتكم والخدمة الحلقة المستديرة ولذلك قيل للخلاخيل خدام وقال الحجاج دلونى على رجل سمين الامانة ولما عقدت الرئاسة لعبد الله بن وهب الراسبى على الخوارج أرادوه على الكلام فقال لا خير فى الرأى الفطير وقال دعوا الرأى يغب وقال اعرابى فى شكر نعمة ذاك عنوان نعمة الله عز وجل ووصف اعرابى قوما فقال اذا اصطفوا سفرت بينهم السهام واذا تصافحوا بالسيوف قعد الحمام وسئل اعرابى عن رجل فقال صفرت عياب الود بينى وبينه بعد امتلائها واكفهرت وجوه كانت بمائها وقال آخر من ركب ظهر الباطل نزل دار الندامة وقيل لرؤبة كيف خلفت ما وراءك فقال التراب يابس والمال عابس ومن البديع فى الشعر طرق كثيرة قد نقلنا منها جملة لتستدل بها على ما بعدها فمن ذلك قول امرئ القيس

وقد اغتدى والطير فى وكناتها * بمنجرد قيد الاوابد هيكل

قوله قيد الاوابد عندهم من البديع ومن الاستعارة ويرونه من الالفاظ الشريفة وعنى بذلك انه اذا أرسل هذا الفرس على الصيد صار قيدا لها وكانت بحالة المقيد من جهة سرعة احضاره واقتدى به الناس واتبعه الشعراء فقيل قيد النواظر وقيد الالحاظ وقيد الكلام وقيد الحديث وقيد الرهان وقال الاسود بن يعفر

بمقلص عتد جهير شده * قيد الاوابد والرهان جواد

وقال أبو تمام   لها منظر قيد الاوابد لم يزل * يروح ويغدو فى خفارته الحب
وقال آخر   ألحاظه قيد عيون الورى فليس طرف يتعداه
وقال آخر   * قيد الحسن عليه الحدقا *

وذكر الاصمعى وأبو عبيدة وحماد وقبلهم أبو عمرو أنه أحسن فى هذه اللفظة وانه اتبع فيها فلم يلحق وذكروه فى باب الاستعارة البليغة وسماها بعض أهل الصنعة باسم آخر وجعلوها من باب الارداف وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ هو تابع له وردف قالوا ومثله قوله * نؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل * وانما أراد ترفهها بقوله نؤم الضحى ومن هذا الباب قول الشاعر

بعيدة مهوى القرط اما لنوفل * أبوها واما عبد شمس وهاشم

وانما أراد أن يصف طول جيدها فأتى بردفه ومن ذلك قول امرئ القيس * وليل كموج البحر أرخى سدوله * وذلك من الاستعارة المليحة ويجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من القرآن واشتعل الرأس شيبا واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ومما يعدونه من البديع التشبيه الحسن كقول امرئ القيس

كأن عيون الوحش حول خبائنا * وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

وقوله   كأن قلوب الطير رطبا ويابسا * لدى وكرها العناب والحشف البالى

واستبدعوا تشبيه شيئين بشيئين على حسن تقسيم ويزعمون ان أحسن ما وجد فى هذا للمحدثين قول بشار

كأن مثار النقع فوق رؤسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقد سبق امرؤ القيس الى صحة التقسيم فى التشبيه ولم يتمكن بشار الا من تشبيه احدى الجملتين بالاخرى دون صحة التقسيم والتفصيل وكذلك عدوا من البديع قول امرئ القيس فى أذنى الفرس

وسامعتان يعرف العتق فيهما * كسامعتى مذعورة وسط ربرب

واتبعه طرفة فقال فيه

وسامعتان يعرف العتق فيهما * كسامعتى شاة بحومل مفرد

ومثله قول امرئ القيس فى وصف الفرس

وعينان كالماويتين ومحجر * الى سند مثل الصفيح المنصب

وقال طرفة فى وصف عينى ناقته

وعينان كالماويتين استكنتا * بكهفى حجاجى صخرة قلت مورد

ومن البديع فى التشبيه قول امرئ القيس

له ايطلا ظبى وساقا نعامة * وارخاء سرحان وتقريب تتفل

وذلك فى تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء أحسن فيها ومن التشبيه الحسن فى القرآن قوله تعالى وله الجوارى المنشآت فى البحر كالاعلام وقوله تعالى كأنهن بيض مكنون ومواضع نذكرها بعد هذا ومن البديع فى الاستعارة قول امرئ القيس

وليل كموج البحر أرخى سدوله * علىّ بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف اعجازا وناء بكلكل

وهذه كلها استعارات أتى بها فى ذكر طول الليل ومن ذلك قول النابغة

وصدر أراح الليل عازب همه * تضاعف فيه الحزن من كل جانب

فاستعاره من اراحة الراعى ابله الى مواضعها التى تأوى اليها بالليل وأخذ منه ابن الدمينة فقال

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى * ويجمعنى والهم والليل جامع

ومن ذلك قول زهير

صحا القلب عن ليلى وأقصر باطله * وعرى أفراس الصبا ورواحله

ومن ذلك قول امرئ القيس

سموت اليها بعد ما نام أهلها * سموّ حباب الماء حالا على حال

وأخذه أبو تمام فقال * سموّ عباب الماء جاشت غواربه *

وانما أراد امرؤ القيس اخفاء شخصه ومن ذلك قوله * كأنى وأصحابى على قرن أعفرا *
يريد انهم غير مطمئنين ومن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد الله بن سعيد قال أخبرنى أبى قال أخبرنا عسل بن ذكوان أخبرنا أبو عثمان المازنى قال سمعت الاصمعى يقول أجمع أصحابنا انه لم يقل أحسن ولا أجمع من قول النابغة

فانك كالليل الذى هو مدركى * وان خلت ان المنتأى عنك واسع

قال الحسن بن عبد الله وأخبرنا محمد بن يحيى أخبرنا عون بن محمد الكندى أخبرنا قعنب بن محرز قال سمعت الاصمعى يقول سمعت أبا عمرو يقول كان زهير يمدح السوق ولو ضرب على أسفل قدميه مائتا دقل على ان يقول كقول النابغة

فانك كالليل الذى هو مدركى * وان خلت ان المنتأى عنك واسع

لما قال يريد ان سلطانه كالليل يصل الى كل مكان واتبعه الفرزدق فقال

ولو حملتنى الريح ثم طلبتنى * لكنت كشئ أدركتنى مقادره

فلم يأت بالمعنى ولا اللفظ على ماسبق اليه النابغة ثم أخذه الاخطل فقال

وان أمير المؤمنين وفعله * لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

وقد روى نحو هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب وجعل رزقي تحت ظل رمحى وليدخلن هذا الدين على مادخل عليه الليل وأخذه على بن ٣ فقال

ومالامرئ حاولته عنك مهرب * ولو كان في جوف السماء المطالع

بلى هارب لايهتدى لمكانه * ظلام ولا ضوء من الصبح طالع

ومثله قول سلم الخاسر

فأنت كالدهر مبثوثا حبائله * والدهر لاملجا منه ولاهرب

ولو ملكت عنان الريح أصرفه * فى كل ناحية مافاتك الطلب

فأخذه البحترى فقال

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن * ينجيهم عن خوف بأسك مهرب

ومن بديع الاستعارة قول زهير

فلما وردن الماء زرقا جمامه * وضعن عصى الحاضر المتخيم

وقول الاعشى

وان عتاق العيس سوف يزوركم * ثناء على أعجازهن معلق

ومنه أخذ نصيب فقال

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

ومن ذلك قول تأبط شرا

نخالط سهل الارض لم يكدح الصفا * به كدحة والموت خزيان ينظر

ومن الاستعارة فى القرآن كثير كقوله وانه لذكر لك ولقومك يريد مايكون الذكر عنه شرفا * وقوله صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة قيل دين الله أراد وقوله اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ومن البديع عندهم الغلو كقول النمر بن تولب

أبقى الحوادث والايام من غر * اسناد سيف قديم اثره بادى

تظل تحفر عنه ان ضربت به * بعد الذراعين والقيدين والهادى

وكقول النابغة

تقد السلوقى المضاعف نسجه * ويوقدن بالصفاح نار الحباحب

وكقول عنترة فازور من وقع القنا بلبانه * وشكا الى بعبرة وتحمحم

وكقول أبي تمام

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه * لخر يلثم منه موطئ القدم

وكقول البحترى

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما * فى وسعه لمشى اليك المنبر

ومن هذا الجنس فى القرآن يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد وقوله اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وقوله تكاد تميز من الغيظ ومما يعدّونه من البديع المماثلة وهو ضرب من الاستعارة وذلك ان يقصد الاشارة الى معنى فيضع ألفاظا تدل عليه وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذى قصد الاشارة اليه نظيره من المنثور ان يزيد بن الوليد بلغه ان مروان بن محمد يتلكأ عن بيعته فكتب اليه أما بعد فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيتهما شئت وكنحو ما كتب به الحجاج الى المهلب فان أنت فعلت ذلك والا أشرعت اليك الرمح فأجابه المهلب فان أشرع الامير الرمح قلبت اليه ظهر المجن وكقول زهير

ومن يعص أطراف الزجاج فانه * يطيع العوالى ركبت كل لهذم

وكقول امرئ القيس

وما ذرفت عيناك الا لتضربى * بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وكقول عمرو بن معدى كرب

فلو ان قومى أنطقتنى رماحهم * نطقت ولكن الرماح أجرت

وكقول القائل

بنى عمنا لا تذكروا الشعر بعدما * دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

وكقول الآخر

أقول وقد شدوا لسانى بنسعة * أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا

ومن هذا الباب فى القرآن كقوله فما أصبرهم على النار وكقوله وثيابك فطهر قال الاصمعى أراد البدن قال وتقول العرب فدا لك ثوباى يريد نفسه وأنشد

ألا أبلغ أبا حفص رسولا * فدا لك من أخى ثقة ازارى

ويرون من البديع أيضا ما يسمونه المطابقة وأكثرهم على ان معناها ان يذكر الشئ وضده كالليل والنهار والسواد والبياض واليه ذهب الخليل بن أحمد والاصمعى ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز وذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور ما قاله بعضهم أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا فى ضيق الضمان ونظيره من القرآن ولكم فى القصاص حياة وقوله يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى وقوله يولج الليل فى النهار ويولج

النهار فى الليل ومثله كثير جدا وكقول النبى صلى الله عليه وسلم للانصار انكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع وقال آخرون بل المطابقة ان يشترك معنيان بلفظة واحدة واليه ذهب قدامة بن جعفر الكاتب فمن ذلك قول الافوه الاودى

واقطع الهوجل مستأنسا * بهوجل مستأنس عنتريس

عنى بالهوجل الاول الارض وبالثانى الناقة ومثله قول زياد الاعجم

ونبأتهم يستنظرون بكاهل * وللوم فيهم كاهل وسنام

ومثله قول أبى دواد

عهدت لها منزلا دائرا * والا على الماء يحملن الا

فالال الاول أعمدة الخيام تنصب على البئر للسقى والال الثانى السراب وليس عنده قول من قال المطابقة انما تكون باجتماع الشئ وضده بشئ ومن المعنى الاول قول الشاعر

أهين لهم نفسى لاكرمها بهم * ولن تكرم النفس التى لا تهينها

ومثله قول امرئ القيس

وتردى على صم صلاب ملاطس * شديدات عقد لينات متان

وكقول النابغة

ولا يحسبون الخير لا شر بعده * ولا يحسبون الشر ضربة لازب

وكقول زهير وقد جمع فيه طباقين

بعزمة مأمور مطيع وآمر * مطاع فلا يلقى لحزمهم مثل

وكقول الفرزدق

والشيب ينهض فى الشباب كأنه * ليل يصيح بجانبيه نهار

ومما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير

وباسط خير فيكم بيمينه * وقابض شر عنكم بشماليا

وكقول رجل من بلعنبر

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة * ومن اساءة أهل السوء احسانا

وروى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه تمثل بقول القائل

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل * ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

وكقول الآخر

فسرى كاعلانى وتلك سجيتى * وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا

وكقول قيس بن الخطيم

اذا أنت لم تنفع فضر فانما * يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

وكقول السموأل وماضرنا انا قليل وجارنا * عزيز وجار الاكثرين ذليل

فهذا باب يرونه من البديع وباب آخر وهو التجنيس ومعنى ذلك ان تأتي بكلمتين متجانستين فمنه ماتكون الكلمة تجانس الاخرى في تأليف حروفها واليه ذهب الخليل ومنهم من زعم ان المجانسة ان تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق كقوله عز وجل فأقم وجهك للدين القيم وكقوله وأسلمت مع سليمان وكقوله ياأسفا على يوسف وكقوله الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وكقوله وهم ينهون عنه وينأون عنه وكقول النبي صلى الله عليه وسلم أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وعصية عصت الله ورسوله وكقوله الظلم ظلمات يوم القيامة وقوله لايكون ذوالوجهين وجيها عندالله وكتب بعض الكتاب العذر مع التعذر واجب فرأيك فيه وقال معاوية لابن عباس مالكم يابني هاشم تصابون في أبصاركم فقال كما تصابون في بصائركم وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه هاجروا ولاتهجروا ومن ذلك قول قيس بن عاصم

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة * كسته نجيعا من دم الجوف أشكلا

وقال آخر أمل عليها بالبلى الملوان

وقال الآخر وذا كم ان ذل الجار حالفكم * وان انفكم لاتعرف الانفا

وكتب الى بعض مشايخنا قال أنشدنا الاخفش عن المبرد عن التوزي

وقالوا حمامات فحم لقاؤها * وطلح فزيرت والمطى طلوح

عقاب باعقاب من النأى بعدما * جرت نية تنسى المحب طروح

وقال صحابي هدهد فوق بانة * هدى وبيان بالنجاح يلوح

وقالوا دم دامت مواثيق عهده * ودام لنا حسن الصفاء صريح

وقال آخر أقبلن من مصر يبارين البرى

وقال القطامي ولماردها في الشول شالت * بذيال يكون لها لفاعا

وقد يكون التجنيس بزيادة حرف أوما يقارب ذلك كقول البحتري

هل لما فات من تلاف تلاف * أم لشاك من الصبابة شاف

وقال ابن مقبل

يمشين هيل النقا مالت جوانبه * ينهال حينا وينهاه الثرى حينا

وقال زهير

هم يضربون حبيك البيض اذ لحقوا * لاينكلون اذا ما استلحموا وحموا

ومن ذلك قول أبي تمام

يمدون من أيد عواص عواصم ● تصول بأسياف قواض قواضب

وأبو نواس يقصد في مصراعي مقدمات شعره هذا الباب كقوله

ألا دارها بالماء حتى تلينها ● فلن تكرم الصهباء حتى تهينها

وكذلك قوله ديار نوار ماديار بنوار ● كسونك شجواهن منه عوار

وكقول ابن المعتز

سأثني على عهد المطيرة والقصر ● وأدعو لها بالساكنين وبالقطر

وكقوله هي الدار الا انها منهم قفر ● واني بها ثاو وانهم سفر

وكقوله للاماني حديث يقر ● ويسوء الدهر من قد يسر

وكقول المتنبي

وقد أراني الشباب الروح في بدني ● وقد أراني المشيب الروح في بدلي

وقد قيل ان من هذا القبيل قوله عز وجل خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون وقوله قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ماشئتم من دونه و يعدون من البديع المقابلة وهي ان يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده وذلك مثل قول النابغة الجعدي فتى تم فيه مايسر صديقه ● على ان فيه مايسوء الاعاديا

وقال تأبط شرا

أهز به في ندوة الحي عطفه ● كما هز عطفي بالهجان الاوارك

وكقول الآخر

واذا حديث ساءني لم أكتئب ● واذا حديث سرني لم أسرر

وكقول الآخر

وذي اخوة قطعت أقران بينهم ● كما تركوني واحدا لا أخا ليا

ونظيره من القرآن ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون و يعدون من البديع الموازنة وذلك كقول بعضهم اصبر على حر اللقا ومضض النزال وشدة المصارع وكقول امرئ القيس * سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا * ونظيره من القرآن والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود ويعدون من البديع المساواة وهي ان يكون اللفظ مساويا للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه وذلك يعد من البلاغة وذلك كقول زهير

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ● وان خالها تخفى على الناس تعلم

وكقول جرير فلو شاء قومى كان حلمى فيهم ● وكان على جهال أعدائهم جهلى
وكقول الآخر
اذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا ● أصبت حليما أو أصابك جاهل
وكقول الهذلى
فلا تجزعن من سنة أنت سرتها ● وأول راض سيرة من يسيرها
وكقول الآخر
فان هم طاوعوك فطاوعيهم ● وان عاصوك فاعصى من عصاك
ونظير ذلك فى القرآن كثير ومما يعدونه من البديع الاشارة وهو اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة وقال بعضهم فى وصف البلاغة لمحة دالة ومن ذلك قول طرفة
فظل لنا يوم لذيذ بنعمة ● فقل فى مقيل نحسه متغيب
وكقول زيد الخيل
فخيبة من يخيب على غنى ● وباهلة بن أعصر والرباب
ونظيره من القرآن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى ومواضع كثيرة ويعدون من البديع المبالغة والغلو والمبالغة تأكيد معانى القول وذلك كقول الشاعر ونكرم جارنا ما كان فينا * ونتبعه الكرامة حيث مالا
ومن ذلك قول الآخر
وهم تركوك أسلح من حبارى ● رأت صقرا وأشرد من نعام
فقوله رأت صقرا مبالغة ومن الغلو قول أبى نواس
توهمتها فى كأسها فكأنما ● توهمت شيأ ليس يدركه العقل
فما يرتقى التكييف فيها الى مدى ● يحد به الا ومن قبله قبل
وقول زهير
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ● قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
وكقول النابغة بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ● وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا
وكقول الخنساء
وما بلغت كف امرئ متناول * بها المجد الا حيثما نلت أطول
وما بلغ المهدون فى القول مدحة * وان أطنبوا الا الذى فيك أفضل
وقول الآخر
له همم لا منتهى لكبارها * وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو ان معشار جودها * على البر صار البر أندى من البحر

ويرون من البديع الايغال فى الشعر خاصة فلا يطلب مثله فى القرآن الا فى الفواصل كقول امرئ القيس

كأن عيون الوحش حول خبائنا * وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

وقد أوغل بالقافية فى الوصف وأكد التشبيه لها والمعنى قد يستقل دونها ومن البديع عندهم التوشيح وهو ان يشيد أول البيت بقافيته وأول الكلام بآخره كقول البحترى

فليس الذى حللته بمحلل * وليس الذى حرمته بحرام

ومثله فى القرآن فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ومن ذلك رد عجز الكلام على صدره كقول الله عز وجل انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكقوله لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ومن هذا الباب قول القائل

وان لم يكن الا تعلل ساعة * قليلا فانى نافع لى قليلها

وكقول جرير سقى الرمل جون مستهل غمامه * وما ذاك الا حب من حل بالرمل وكقول الآخر

يود الفتى طول السلامة والغنى * فكيف يرى طول السلامة يفعل

وكقول أبى صخر الهذلى

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها * فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وكقول الآخر

أصد بأيدى العيس عن قصد أرضها * وقلبى اليها بالمودة قاصد

وكقول عمرو بن معدى كرب

اذا لم تستطع شيأ فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

ومن البديع صحة التقسيم ومن ذلك قول نصيب

فقال فريق القوم لا وفريقهم * نعم وفريق قال ويحك ما يدرى

وليس فى أقسام الجواب أكثر من هذا وكقول الآخر

فكأنما فيه نهار ساطع * وكأنه ليل عليها مظلم

وقول المقنع الكندى

وان يأكلوا لحمى وفرت لحومهم * وان يهدموا مجدى بنيت لهم مجدا

وان ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم * وان هم هووا غيى هويت لهم رشدا

وان زجروا طيرا بنحس تمر بي * زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا

وكقول عروة بن حزام

بمن لو رآه غانيا لفديته * ومن لو رآنى غانيا لفدانى

ونحوه قول الله عز وجل "الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ونحوه صحة التفسير كقول القائل

ولى فرس للحلم بالحلم ملجم * ولى فرس للجهل بالجهل مسرج

ومن البديع التكميل والتتميم كقول نافع بن خليفة

رجال اذا لم يقبلوا الحق منهم * ويعطوه عادوا بالسيوف القواطع

واتمام جودة المعنى بقوله ويعطوه وذلك كقول الله عز وجل "ان الله عنده علم الساعة الى آخر الآية ثم قال ان الله عليم خبير ومن البديع الترصيع وذلك من ألوان منها قول امرئ القيس

مخش مخش مقبل مدبر معا * كتيس ظباء الحلب فى العدوان

ومن ذلك كثير من مقدمات أبي نواس

يامنة امتنها السكر * ماينقضى منى لها الشكر

وكقوله وقد ذكرناه قبل هذا

ديار نوار ماديار نوار * كسونك شجوا هن منه عوار

ومن ذلك الترصيع مع التجنيس كقول ابن المعتز

ألم تجزع على الربع المحيل * واطلال وآثار محول

ونظيره من القرآن كقوله ان الذين اتقوا اذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لايقصرون وقوله ما أنت بنعمة ربك بمجنون وان لك لأجرا غير ممنون وكقوله وانه على ذلك لشهيد وانه لحب الخير لشديد وكقوله والطور وكتاب مسطور وقوله والسابحات سبحا فالسابقات سبقا وقد أولع الشعراء بنحو هذا فأكثروا فيه ومنهم من اقتنع بالترصيع فى بعض أطراف الكلام ومنهم من بنى كلامه عليه كقول ابن الرومى

أبدانهن ومالبسـ * ـن من الحرير معاحرير

أردانهن وما مسسـ * ـن من العبير معا عبير

وكقوله

فلراهب أن لايريب أمانه * ولراغب أن لايريث نجاحه

ومما يقارب الترصيع ضرب يسمى المضارعة وذلك كقول الخنساء

حامى الحقيقة محمود الخليقة مهـ * ـدى الطريقة نفاع وضرار

جوّاب قاصية جزاز ناصية * عقاد ألوية للخيل جرار

ومن البديع باب التكافؤ وذلك قريب من المطابقة كقول المنصور لاتخرجوا من عز الطاعة الى ذل المعصية وقول عمر بن ذر انا لم نجد لك اذ عصيت الله فينا خيرا من ان نطيع الله فيك ومنه قول بشار

اذا أيقظتك حروب العدا * فنبه لها عمرا ثم نم

ومن البديع باب التعطف كقول امرئ القيس * عود على عود على عود خلق *
وقد تقدم مثاله ومن البديع السلب والايجاب كقول القائل

وننكر ان شئنا على الناس قولهم * ولاينكرون القول حين نقول

ومن البديع الكناية والتعريض كقول القائل

وأحمر كالديباج أما سماؤه * فريا وأما أرضه فمحول

ومن هذا الباب لحن القول ومن ذلك العكس والتبديل كقول الحسن ان من خوفك لتأمن خير ممن أمنك لتخاف وكقوله اللهم اغننى بالفقر اليك ولا تفقرنى بالاستغناء عنك وكقوله بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا وكقول القائل

واذا الدر زان حسن وجوه * كان للدر حسن وجهك زينا

وقد يدخل فى هذا الباب قوله تعالى يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل ومن البديع الالتفات فن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد الله العسكرى أخبرنا محمد بن عبد الله الصولى حدثنى يحيى بن على المنجم عن أبيه عن اسحاق بن ابراهيم قال قال لى الاصمعى أتعرف التفاتات جرير قلت لا فما هى قال

أتنسى اذ تودعنا سليمى * بفرع بشامة سقى البشام

ومثل ذلك لجرير

متى كان الخيام بذى طلوح * سقيت الغيث ايتها الخيام

ومعنى الالتفاتات انه اعترض فى الكلام قوله سقيت الغيث ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتا وكان الكلام منتظما وكان يقول متى كان الخيام بذى طلوح أيتها الخيام فتى خرج عن الكلام الاول ثم رجع اليه على وجه يلطف كان ذلك التفاتا ومثله قول النابغة الجعدى ألا زعمت بنو سعد بأنى * ألا كذبوا كبير السن فانى

ومثله قول كثير

لو ان الباذلين وأنت منهم * رأوك تعلموا منك المطالا

ومثله قول أبى تمام

وأنجدتم من بعد اتهام داركم * فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

وكقول جرير

طرب الحمام بذى الاراك فشاقنى * لازلت فى غلل وأيك ناضر

التفت الى الحمام فدعا لها ومثله قول حسان

ان التى ناولتنى فرددتها * قتلت قتلت فهاتها لم تقتل

ومنه قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

وأجمل اذا ما كنت لابد مانعا * وقد يمنع الشئ الفتى وهو مجمل

وكقول ابن ميادة

فلا صرمه يبدو وفى اليأس راحة * ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

ونظير ذلك من القرآن ما حكى الله تعالى عن ابراهيم الخليل من قوله اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا الى قوله فما كان جواب قومه وقوله عز وجل ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز وبرزوا لله جميعا ومثله قوله حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة الى آخر الآية ومثله قوله واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها الى قوله فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ومثله قوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم فمن تاب من بعد ظلمه ومنهم من لا يعد الاعتراض والرجوع من هذا الباب ومنهم من يفرده عنه كقول زهير

قف بالديار التى لم يعفها القدم * نعم وغيرها الارواح والديم

وكقول الاعرابى

أليس قليلا نظرة ان نظرتها * اليك وكلا ليس منك قليل

وكقول ابن هرمة

ليت حظى كلحظة العين منها * وكثير منها القليل المهنا

ومن الرجوع قول القائل

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا * على ان قرب الدار خير من البعد

وقال الاعشى

صرمت ولم أصرمكم وكصارم * أخ قد طوى كشحا وآب ليذهبا

وكقول بشار لى حيلة فيمن ينم * وليس فى الكذاب حيله

من كان يخلق مايقو * ل فحيلتى فيه قليله

وقال آخر

ومابي انتصار ان غدا الدهر ظالمى * على بلى ان كان من عندك النصر

وباب آخر من البديع يسمى التذييل وهو ضرب من التأكيد وهو ضد ما قدمناه ذكره من الاشارة كقول أبي رواد

اذا ماعقدنا له ذمة * شددنا العناج وعقد الكرب

وأخذه الحطيئة فقال

فدعوا نزال فكنت أول نازل * وعلام أركبه اذا لم أنزل

وكقول جرير لقد كنت فيها يافرزدق تابعا * وريش الذنابى تابع للقوادم

ومثله قوله عز وجل ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا الى قوله انه كان من المفسدين ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين الى قوله كانوا خاطئين

*وباب من البديع يسمى الاستطراد فمن ذلك ما كتب الى الحسن بن عبد الله قال أنشدنى أبو بكر بن دريد قال أنشدنا أبو حاتم عن أبي عبيدة لحسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه

ان كنت كاذبة التى حدثتنى * فنجوت منجا الحرث بن هشام

ترك الاحبة لم يقاتل دونهم * ونجا برأس طمرة ولجام

وكقول السموأل

وانا القوم لانرى القتل سبة * اذا ما رأته عامر وسلول

وكقول الآخر

خليلى من كعب أعينا أخاكما * على دهره ان الكريم معين

ولا تبخلا بخل ابن قرعة انه * مخافة ان يرجى نراه حزين

وكقول الآخر

فاذرقرن الشمس حتى كأننا * من العى نحكى أحمد بن هشام

وكقول زهير

ان البخيل ملوم حيث كان ولا * كن الجواد على علاته هرم

وفيما كتب الى الحسن بن عبد الله قال أخبرنى محمد بن يحيى حدثنى محمد بن على الانبارى قال سمعت البحترى يقول أنشدنى أبو تمام لنفسه

وسابح هطل التعداء هتان * على الجراء أمين غير خوان

أظمى الفصوص ولم تظمأ قوائمه * فخل عينك فى ريان ظمآن

ولو تراه مشيا والحصى فلق * بين السنابك من مثنى ووحدان
أيقنت ان لم تثبت ان حافره * من صخر تدمر أومن وجه عثمان

وقال لى ماهذا من الشعر قلت لاأدرى قال هذا المستطرد أوقال الاستطراد قلت وما معنى ذلك قال يرى انه يصف الفرس و يريد هجاء عثمان فقال وقال البحترى

ماان يعاف قذى ولو أوردته * يوما خلائق حمدويه الاحول

قال فقيل للبحترى انك أخذت هذا من أبى تمام فقال مايعاب على ان آخذ منه وأتبعه فيما يقول ومن هذا الباب قول أبى تمام

صب الفراق علينا صب من كثبا * عليه اسحق يوم الروع منتقما

ومنه قول السرى الرفاء

نزع الوشاة لنا بسهم قطيعة * يرمى بسهم الحين من يرمى به
ليت الزمان أصاب حب قلوبهم * بقنا ابن عبد الله أو بحرابه

ونظيره من القرآن أولم يروا الى ماخلق الله من شئ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ولله يسجد مافى السموات ومافى الارض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون كأنه كان المراد ان يجرى بالقول الاول الى الاخبار عن ان كل شئ يسجد لله عز وجل وان كان ابتداء الكلام فى أمر خاص ومن البديع عندهم التكرار كقول الشاعر هلا سألت جموع كنـ * ـدة يوم ولوا أين أين

وكقول الآخر وكانت فزارة تصلى بنا * فأولى فزارة أولى لها

ونظيره من القرآن كثير كقوله ان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا وكالتكرار فى قوله قل ياأيها الكافرون وهذا فيه معنى زائد على التكرار لانه يفيد الاخبار عن الغيب ومن البديع عندهم ضرب من الاستثناء كقول النابغة

ولاعيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

وكقول النابغة الجعدى

فتى كملت أخلاقه غير انه * جواد فلا يبقى من المال باقيا
فتى تم فيه مايسر صديقه * على ان فيه مايسوء الاعاديا

وكقول الآخر حليم اذا ما الحلم زين أهله * مع الحلم فى عين العدو مهيب

وكقول أبى تمام تنصل ربها من غير جرم * اليك سوى النصيحة والوداد

ووجوه البديع كثيرة جدا فاقتصرنا على ذكر بعضها ونبهنا بذلك على مالم نذكر كراهة التطويل فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع وقد قدر مقدرون انه يمكن

استفادة اعجاز القرآن من هذه الابواب التي نقلناها وان ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه وليس كذلك عندنا الان هذه الوجوه اذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل اليها بالتدرب والتعود والتصنع لها وذلك كالشعر الذي اذا عرف الانسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه والوجوه التي نقول ان اعجاز القرآن يمكن ان يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل اليه بحال ويبين ماقلنا ان كثيرا من المحدثين قد تصنع لابواب الصنعة حتى حشي جميع شعره منها واجتهد ان لايفوته بيت الا وهو يملؤه من الصنعة كما صنع أبو تمام في لاميته

متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل * وصدرك منها مدة الدهر آهل

تطل طلول الدمع في كل موقف * وتمثل بالصبر الديار المواثل

دوارس لم يجف الربيع ربوعها * ولامر في اغفالها وهو غافل

فقد سحبت فيها السحاب ذيولها * وقد أخملت بالنور تلك الخمائل

تعفين من زاد العفاة اذا انتحى * على الحي صرف الازمة المتماحل

لهم سلف سمر العوالي وسامر * وفيهم جمال لايغيض وجامل

ليالي أضللت العزاء وخذلت * بعقلك آرام الخدور العقائل

من الهيف لو أن الخلاخيل صيرت * لها وشحا جالت عليه الخلاخل

مهى الوحش الا ان هاتا أوانس * قنا الخط الا ان تلك ذوابل

هوى كان خلسا ان من أطيب الهوى * هوى جلت في أفيائه وهو خامل

ومن الادباء من عاب عليه هذه الابيات ونحوها على ماقد تكلف فيها من البديع وتعمل من الصنعة فقال قد اذهب ماء هذا الشعر ورونقه وفائدته اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ماجمع فيه وقد تعصب عليه أحمد بن عبيد الله بن عمار وأسرف حتى تجاوز الى الغض من محاسنه ولما قد أولع به من الصنعة ربما غطى على بصره حتى يبدع في القبيح وهو يريد ان يبدع في الحسن كقوله في قصيدة له أولها

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد * وعاد قتادا عندها كل مرقد

فقال فيها لعمري لقد حررت يوم لقيته * لو ان القضاء وحده لم يبرد

وكقوله لولم تدارك مسن المجد مذ زمن * بالجود والباس كان المجد قد خرفا

فهذا من الاستعارات القبيحة والبديع المقيت كقوله

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت * أعمارهم قبل نضج التين والعنب

وكقوله لو اجعت بين أطراف الرماح اذا * لمات اذ لم يمت من شدة الحزن

وكقوله خشنت عليه أخت بنى خشين

وكقوله ألا لاعدّ الدهر كفا بسيئ * الى مجتدى نصر فتقطع من الزند

وقال فى وصف المطايا

لو كان كلفها عبيد حاجة * يوما لزنى شدقا وجديلا

وكقوله فضربت الشتاء فى أخدعيه * ضربة غادرته عودا ركوبا

فهذا وما أشبهه انما يحدث من غلوه فى محبة الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب وربما أسرف فى المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه واستوخم رصعه وكان التكلف باردا والتصرف جامدا وربما اتفق مع ذلك فى كلامه النادر المليح كما يتفق البارد القبيح فأما البحترى فانه لا يرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام ويقل التصنع له فاذا وقع فى كلامه كان فى الاكثر حسنا رشيقا وظريفا جيلا وتصنعه للمطابق كثير حسن وتعمقه فى وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة فى السلامة فلذلك يخرج سليما من العيب فى الاكثر وأما وقوف الالفاظ به عن تمام الحسنى وقعود العبارات عن الغاية القصوى فشئ لا بد منه وأمر لا محيص عنه كيف وقد وقف على من هو أجل منه وأعظم قدرا فى هذه الصنعة وأكبر فى الطبقة كامرئ القيس وزهير والنابغة والى يومه ونحن نبين تميز كلامه وانحطاط درجة قولهم ونزول طبقة نظمهم عن بديع نظم القرآن فى باب مفرد يتصور به ذو الصنعة ما يجب تصوره ويتحقق وجه الاعجاز فيه بمشيئة الله وعونه ثم رجع الكلام بنا الى ما قدمناه من أنه لا سبيل الى معرفة اعجاز القرآن من البديع الذى ادعوه فى الشعر ووصفوه فيه وذلك ان هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق فى البلاغة وله طريق يسلك ووجه يقصد وسلم يرتقى فيه اليه ومثال قد يقع طالبه عليه فرب انسان يتعوّد ان ينظم جميع كلامه شعرا أو يتعوّد ان يكون جميع خطابه سجعا أو صنعة متصلة لا يسقط من كلامه حرف وقد يباده به ما قد تعوّده وأنت ترى أدباء زماننا يضيفون المحاسن فى جزء وكذلك يؤلفون أنواع البارع ثم ينظرون فيه اذا أرادوا انشاء قصيدة أو رسالة أو خطبة فيحشون به كلامهم ومن كان قد تدرب وتقدم فى حفظ ذلك استغنى عن هذا التصنيف ولم يحتج الى تكلف هذا التأليف وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطا من باع كلامه وموشحا بأنواع البديع ما يحاوله من قوله وهذا طريق لا يتعذر وباب لا يمتنع وكل يأخذ فيه مأخذا ويقف فيه موقفا على قدر ما معه من المعرفة وبحسب ما يمدّه من الطبع فأما شأو نظم القرآن

فليس له مثال يحتذى اليه ولا امام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب والشئ القليل العجيب وكما يلحق بكلامه بالوحشيات ويضاف من قوله الى الاوابد لان ما جرى هذا المجرى و وقع هذا الموقع فانما يتفق للشاعر فى لمع من شعره وللكاتب فى قليل من رسائله وللخطيب فى يسير من خطبه ولو كان كل شعره نادرا ومثلا سائرا ومعنى بديعا ولفظا رشيقا وكل كلامه مملوأ من رونقه ومائه ومملأ ببهجته وحسن روائه ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين والمتردد بين الطرفين ولا البارد المستثقل والغث المستنكر لم يبن الاعجاز فى الكلام ولم يبن التفاوت العجيب بين النظام والنظام وهذه جملة تحتاج الى تفصيل ومبهم قد يحتاج فى بعضه الى تفسير وسنذكر ذلك بمشيئة الله وعونه ولكن قد يمكن ان يقال فى البديع الذى حكيناه وأضفناه اليهم ان ذلك باب من أبواب البراعة وجنس من أجناس البلاغة وانه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم ولا وجه من وجوه فصاحاتهم واذا أورد هذا المورد و وضع هذا الموضع كان جديرا وانما لم نطلق القول اطلاقا لانا لا نجعل الاعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة ووقفا عليها ومضافا اليها وان صح ان تكون هذه الوجوه مؤثرة فى الجملة آخذة بحظها من الحسن والبهجة متى وقعت فى الكلام على غير وجه التكلف المستبشع والتعمل المستشنع

﴿ فصل فى كيفية الوقوف على اعجاز القرآن ﴾

قد بينا انه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من العجم والترك وغيرهم ان يعرفوا اعجاز القرآن الا ان يعلموا ان العرب قد عجزوا عن ذلك فاذا عرفوا هذا بأن علموا انهم قد تحدوا على ان يأتوا بمثله وقرعوا على ترك الاتيان بمثله ولم يأتوا به تبينوا انهم عاجزون عنه واذا عجز أهل ذلك اللسان فهم عنه أعجز وكذلك نقول ان من كان من أهل اللسان العربى الا انه ليس يبلغ فى الفصاحة الحد الذى يتناهى الى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة وما يعدونه فصيحا بليغا بارعا من غيره فهو كالاعجمى فى انه لا يمكنه ان يعرف اعجاز القرآن الا بمثل ما بينا ان يعرف به الفارسى الذى بدأنا بذكره وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء فأما من كان قد تناهى فى معرفة اللسان العربى ووقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذى ينتهى اليه وسع المتكلم من الفصاحة ويعرف ما يخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة فليس يخفى عليه اعجاز القرآن كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر وكما يميز بين الشعر الجيد والردىء والفصيح والبديع والنادر والبارع والغريب وهذا كما

يميز أهل كل صناعة صنعتهم فيعرف الصيرفي من النقد ما يخفى على غيره ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته ورداءته ما يخفى على غيره وان كان يبقى مع معرفة هذا الشأن أمر آخر وربما اختلفوا فيه لان من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين والقول الرصين ومنهم من يختار الكلام الذي يروق ماؤه وتروع بهجته ورواؤه ويسلس مأخذه ويسلم وجهه ومنفذه ويكون قريب المتناول غير عويص اللفظ ولا غامض المعنى كما يختار قوم ما يغمض معناه ويغرب لفظه ولا يختار ما سهل على اللسان وسبق الى البيان وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصف زهيرا فقال كان لا يمدح الرجل الا بما فيه وقال لعبد بني الحسحاس حين أنشده * كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا *

أما انه لو قلت مثل هذا لأجزتك عليه وروى ان جريرا سئل عن أحسن الشعر فقال قوله

ان الشقي الذي في النار منزله ● والفوز فوز الذي ينجو من النار

كأنه فضله لصدق معناه ومنهم من يختار الغلو في قول الشعر والافراط فيه حتى ربما قالوا احسن الشعر أكذبه كقول النابغة

يقد السلوقي المضاعف نسجه * ويوقدن بالصفاح نار الحباحب

وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين في الغلو والاقتصاد وفي المتانة والسلاسة ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة والطف تعملا وان يتخير الالفاظ الرشيقة للمعاني البديعة والقوافي الواقعة كمذهب البحتري وعلى ما وصفه عن بعض الكتاب

في نظام من البلاغة ماشك امرؤ انه نظام فريد

وبديع كأنه الزهر الضا ● حك في رونق الربيع الجديد

حزن مستعمل الكلام اختيارا * وتجنبن ظلمة التعقيد

وركبن اللفظ القريب فادرك * ن به غاية المراد البعيد

ويرون ان من تعدى هذا كان سالكا مسلكا عاميا ولم يروه شاعرا ولا مصيبا وفيما كتب الحسن بن عبد الله أبو أحمد العسكري قال أخبرني محمد بن يحيى قال أخبرني عبد الله بن الحسن قال قال لي البحتري دعاني علي بن الجهم فمضيت اليه فافضنا في اشعار المحدثين الى ان ذكرنا شعر أشجع فقال لي انه يخلي وأعادها مرات ولم أفهمها وانفت ان أسأله عن معناها فلما انصرفت افكرت في الكلمة ونظرت في شعره فاذا هو ربما مرت له الابيات مغسولة ليس فيها بيت رائع واذا هو يريد هذا بعينه انه يعمل الأبيات فلا يصيب فيها بيتا نادرا كما أن الرامي اذا رمى برشقه فلم يصب بشئ قيل قد أخلى قال وكان علي بن الجهم أحسن الناس علما بالشعر وقوم من أهل اللغة يميلون الى الرصين من الكلام الذي يجمع الغريب والمعاني

مثل أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر والاصمعي ومنهم من يختار الوحشي من الشعر كما اختار المفضل للنصور من المفضليات وقيل انه اختار ذلك لميله الى ذلك الفن وذكر الحسن ابن عبد الله انه أخبره بعض الكتاب عن علي بن العباس قال حضرت مع البحتري مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد سأل البحتري عن أبي نواس ومسلم بن الوليد أيهما أشعر فقال البحتري أبو نواس أشعر فقال عبيد الله ان أبا العباس ثعلبا لا يطابقك على قولك ويفضل مسلما فقال البحتري ليس هذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله انما يعلم ذلك من وقع في سلك الشعر الى مضايقه وانتهى الى ضروراته فقال له عبيد الله وريت بك زنادي يا أبا عبادة وقد وافق حكمك حكم أخيك بشار بن برد في جرير والفرزدق أيهما أشعر فقال جرير أشعرهما فقيل له بماذا فقال لان جريرا يشتد اذا شاء وليس كذلك الفرزدق لانه يشتد ابدا فقيل له فان يونس وأبا عبيدة يفضلان الفرزدق على جرير فقال ليس هذا من عمل أولئك القوم انما يعرف الشعر من يضطر الى أن يقول مثله وفي الشعر ضرب لم يحسنها الفرزدق ولقد ماتت النوار امرأته فناح عليها بقول جرير

لولا الحياء لعادني استعبار * ولزرت قبرك والحبيب يزار

وروي عن ابي عبيدة انه قال للفرزدق مالك لا تنسب كما ينسب جرير فغاب حولا ثم جاء فانشد

يا أخت ناجية بن سامة انني * أخشى عليك بني ان طلبوا دمي

والاعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب الحماسة وما اختاره من الوحشيات وذلك انه تنكر المستنكر الوحشي والمبتذل العامي وأتى بالواسطة وهذه طريقة من ينصف في الاختيار ولا يعدل به غرض يخص لان الذين اختاروا الغريب فانما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم واظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه ولم يكن قصدهم جيد الاشعار لشيء يرجع اليها في انفسها وبين هذا ان الكلام موضوع للابانة عن الاغراض التي في النفوس واذا كان كذلك وجب ان يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد وأوضح في الابانة عن المعنى المطلوب ولم يكن مستكره المطلع على الاذن ومستنكر المورد على النفس حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الافهام أو يمتنع بتعويص معناه عن الابانة ويجب ان يتنكب ما كان عليه اللفظ مبتذل العبارة ركيك المعنى سفسافي الوضع مجتلب التأسيس على غير أصل ممهد ولا طريق موطد وانما فضلت العربية على غيرها الاعتدالها في الوضع ولذلك وضع أصلها على أكثرها بالحروف المعتدلة فقد أهملوا الالفاظ المستكرهة في نظمها وأسقطوها من كلامهم تجري لسانهم على الاعدل ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثي لانهم بدؤا بحرف وسكتوا على آخر

وجعلوا حرفا وصلة بين الحرفين ليتم الابتداء والانتهاء على ذلك والثنائى أقل وكذلك الرباعى والخماسى أقل ولو كان كله ثنائيا لتكررت الحروف ولو كان كله رباعيا أوخماسيا لكثرت الكلمات وكذلك بنى أمر الحروف التى ابتدئ بها السور على هذا فأكثر هذه السور التى ابتدئت بذكر الحروف ذكر فيها ثلاثة أحرف وماهو أربعة أحرف سورتان وما ابتدئ بخمسة أحرف سورتان فأما ما بدئ بحرف واحد فقد اختلفوا فيه فمنهم من لم يجعل ذلك حرفا وانما جعله فعلا واسما لشئ خاص ومن جعل ذلك حرفا قال أراد ان يحقق الحروف مفردها ومنظومها ولضيق ماسوى كلام العرب أولخروجه عن الاعتدال يتكرر فى بعض الالسنة الحرف الواحد فى الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيرا كنحو تكرر الطاء والسين فى لسان يونان وكنحو الحروف الكثيرة التى هى اسم لشئ واحد فى لسان الترك ولذلك لا يمكن ان ينظم من الشعر فى تلك الالسنة على الاعاريض التى تمكن فى اللغة العربية والعربية أشدها تمكنا وأشرفها تصرفا وأعدلها ولذلك جعلت حلية لنظم القرآن وعلق بها الاعجاز وصارت دلالة فى النبوة واذا كان الكلام انما يفيد الابانة عن الاغراض القائمة فى النفوس التى لا يمكن التوصل اليها بأنفسها وهى محتاجة الى ما يعبر عنها فما كان أقرب فى تصويرها وأظهر فى كشفها للفهم الغائب عنها وكان مع ذلك أحكم فى الابانة عن المراد وأشد تحقيقا فى الايضاح عن الطلب وأعجب فى وضعه وأرشق فى تصرفه وأبرع فى نظمه كان أولى وأحق بأن يكون شريفا وقد شبهوا النطق بالخط والخط يحتاج مع بيانه الى رشاقة وصحة ولطف حتى يحوز الفضيلة ويجمع الكمال وشبهوا الخط والنطق بالتصوير وقد أجمعوا ان من أحذق المصورين من صور لك الباكى المتضاحك والباكى الحزين والضاحك المتباكى والضاحك المستبشر وكما انه يحتاج الى لطف يد فى تصوير هذه الامثلة فكذلك يحتاج الى لطف فى اللسان والطبع فى تصوير مافى النفس للغير وفى جملة الكلام الى ماتقصر عبارته وتفضل معانيه وفيه ماتقصر المعانى وتفضل العبارات وفيه مايقع كل واحد منهما وفقا للآخر ثم ينقسم مايقع وفقا الى انه قد يفيدها على تفصيل وكل واحد منهما قد ينقسم الى مايفيدها على ان يكون كل واحد منهما بديعا شريفا وغريبا لطيفا وقد يكون كل واحد منهما مستجلبا متكلفا ومصنوعا متعسفا وقد يكون كل واحد منهما حسنا رشيقا وبهيجا نضيرا وقد يتفق أحد الامرين دون الآخر وقد يتفق ان يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نضارة فى واحد منهما انما يميز من يميز ويعرف من يعرف والحكم فى ذلك صعب شديد والفضل فيه شأو بعيد وقد قل من يميز أصناف الكلام فقد حكى عن طبقة أبى عبيدة وخلف الاحمر وغيرهم فى زمانهم انهم قالوا ذهب من يعرف نقد الشعر

وقد بينا قبل هذا اختلاف القوم في الاختيار وما يجب ان يجمعوا عليه ويرجعوا عند التحقيق اليه وكلام المقتدر نمط وكلام المتوسع باب وكلام المطبوع له طريق وكلام المتكلف له منهاج والكلام المصنوع المطبوع له باب ومتى تقدم الانسان في هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه ولم تشتبه عنده هذه الطرق فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه وقدر كل كلام في نفسه ويحله محله ويعتقد فيه ماهو عليه ويحكم فيه بما يستحق من الحكم وان كان المتكلم يجود في شئ دون شئ عرف ذلك منه وان كان يعم احسانه عرف الاترى ان منهم من يجود في المدح دون الهجو ومنهم من يجود في الهجو وحده ومنهم من يجود في المدح والسخف ومنهم من يجود في الاوصاف والعالم لايشذ عنه مراتب هؤلاء ولا يذهب عليه اقدارهم حتى انه اذا عرف طريقة شاعر في قصائد معدودة فأنشد غيرها من شعره لم يشك ان ذلك من نسجه ولم يرتب في انه من نظمه كما انه اذا عرف خط رجل لم يشتبه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة وحتى يميز بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره وكذلك أمر الخطب فان اشتبه عليه البعض فهو لاشتباه الطريقين وتماثل الصورتين كما قد يشتبه شعر أبي تمام بشعر البحترى في القليل الذى يترك أبو تمام فيه التصنع ويقصد فيه التسهل ويسلك الطريقة الكتابية ويتوجه في تقريب الالفاظ وترك تعويص المعانى ويتفق له مثل بهجة أشعار البحترى وألفاظه ولا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة سبك أبي نواس ولا نسج ابن الرومى من نسج البحترى وينبهه ديباجة شعر البحترى وكثرة مائه وبديع رونقه وبهجة كلامه الا فيما يسترسل فيه فيشتبه بشعر ابن الرومى ويحركه مالشعر أبي نواس من الحلاوة والرقة والرشاقة والسلاسة حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم وكذلك يميز بين شعر الاعشى في التصرف وبين شعر امرئ القيس وبين شعر النابغة وزهير وبين شعر جرير والاخطل والبعيث والفرزدق وكل له منهج معروف وطريق مألوف ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل عبد الحميد وطبقته وبين طبقة من بعده حتى انه لايشتبه عليه مابين رسائل ابن العميد وبين رسائل أهل عصره ومن بعده ممن برع في صنعة الرسائل وتقدم في شأوها حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلص لنفسه طريقة وأنشأ لنفسه منهاجا فسلك تارة طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع وتارة طريقة الاصل وبرع في ذلك باقتداره وتقدم بحذقه ولكنه لايخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره وان كان قد يشتبه البعض ويدق القليل وتغمض الاطراف وتشذ النواحى وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصر وتتدانى رسائل كتاب دهر حتى تشتبه اشتباها شديدا وتتماثل تماثلا قريبا فيغمض الفصل وقد يتشاكل الفرع والاصل وذلك

فيما لا يتعذر ادراك أمده ولا يتصعب طلاب شأوه ولا يمتنع بلوغ غايته والوصول الى نهايته لان الذى يتفق من الفصل بين أهل الزمان اذا تفاضلوا وتفاوتوا فى مضمار فصل قريب وأمر يسير وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الالفاظ وسارق المعانى ولا من يخترعها ولا من يلم بها ولا من يجاهر بالاخذ ممن يكاتم به ولا من يخترع الكلام اختراعا ويبتدهه ابتداها ممن يروى فيه ويجيل الفكر فى تنقيحه ويصبر عليه حتى يتخلص له ما يريد وحتى يتكرر نظره فيه قال أبو عبيدة سمعت أبا عمرو يقول زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين وكان زهير يسمى كبر شعره الحوليات المنقحة وقال عدى بن الرقاع

وقصيدة قد بت أجمع بينها * حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قناته * حتى يقيم ثقافه منآدها

وكقول سويد بن كراع

أبيت بأبواب القوافى كأنما * أصادى بها سربا من الوحش نزعا

ومنهم من يعرف بالبديهة وحدة الخاطر ونفاذ الطبع وسرعة النظم يرتجل القول ارتجالا ويطبعه عفوا صفوا فلا يقعد به عن قوم قد تعبوا وكدوا أنفسهم وجاهدوا خواطرهم وكذلك لا يخفى عليهم الكلام العلوى واللفظ الملوكى كما لا يخفى عليهم الكلام العامى واللفظ السوقى ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلا ويعطونه كيف تصرف حقوقه ويعرفون مراتبه فلا يخفى عليهم ما يختص به كل فاضل تقدم فى وجه من وجوه النظم من الوجه الذى لا يشاركه فيه غيره ولا يساهمه سواه ألا تراهم وصفوا زهيرا بأنه أمدحهم وأشدهم اسر شعر قاله أبو عبيدة وروى أن الفرزدق انتحل بيتا من شعر جرير وقال هذا يشبه شعرى فكان هؤلاء لا يخفى عليهم ما قد نسبناه اليهم من المعرفة بهذا الشأن وهذا كما يعلم البزازون هذا الديباج عمل بتستر وهذا لم يعمل بتستر وان هذا من صنعة فلان دون فلان ومن نسج فلان دون فلان حتى لا يخفى عليه وان كان قد يخفى على غيره ثم انهم يعلمون أيضا من له سمت بنفسه ورفت برأسه ومن يقتدى فى الالفاظ وفى المعانى أو فيهما بغيره ويجعل سواه قدوة له ومن يلم فى الاحوال بمذهب غيره ويأتى فى الاحيان بمخترعه وهذه أمور ممهدة عند العلماء وأسباب معروفة عند الادباء وكما يقولون ان البحترى يغير على أبى تمام اغارة ويأخذ منه صريحا واشارة ويستأنس بالاخذ منه بخلاف ما يستأنس بالاخذ من غيره ويألف اتباعه كما لا يألف اتباع سواه وكما كان أبو تمام يلم بأبى نواس ومسلم وكما يعلم ان بعض الشعراء يأخذ من كل أحد ولا يتحاشى ويؤلف ما يلتقطه من فرق شتى وما الذى نفع

المتنبي بجوده الاخذ وانكاره معرفة الطائيين وأهل الصنعة يدلون على كل حرف أخذه منهما جهارا أو ألم بهما فيه سرارا أو أما ما لم يأخذ عن الغير ولكن سلك النمط وراعى النهج فهم يعرفونه ويقولون هذا اشبه به من التمرة بالتمرة وأقرب اليه من الماء الى الماء وليس بينهما الا كما بين الليلة والليلة فاذا تباينا وذهب أحدهما في غير مذهب صاحبه وسلك في غير جانبه قيل بينهما ما بين السماء والارض وما بين النجم والنون وما بين المشرق والمغرب وانما أطلت عليك ووضعت جميعه بين يديك لتعلم ان أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله وغامضه وجليه وقريبه وبعيده ومعوجه ومستقيمه فكيف يخفى عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول وهو قريب متناول من أمر يخرج عن أجناس كلامهم ويبعد عما هو في عرفهم ويفوت مواقع قدرهم واذا اشتبه ذلك فانما يشتبه على ناقص في الصنعة أو قاصر عن معرفة طرق الكلام الذي يتصرفون فيه ويديرونه بينهم ولا يتجاوزونه فلكلامهم سبل مضبوطة وطرق معروفة محصورة وهذا كما يشتبه على من يدعي الشعر من أهل زماننا والعلم بهذا الشأن فيدعي انه أشعر من البحتري ويتوهم انه أدق مسلكا من أبي نواس وأحسن طريقا من مسلم وأنت تعلم انهما متباعدان وتحقق انهما لا يجتمعان ولعل أحدهما انما يلحظ عبارة صاحبه ويطالع ضياء نجمه ويراعي حفوف جناحه وهو راكد في موضعه ولا يبصر البحتري ظنه ولا يلحقه بشأوه ووهمه فان اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه انما يخبر عن نقصه ويدل على عجزه ويبين عن جهله ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله وانما قدمنا ما قدمناه في هذا الفصل لتعرف ان ما ادعيناه من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن وعجيب نظمه وبديع تأليفه أمر لا يجوز غيره ولا يحتمل سواه ولا يشتبه على ذي بصيرة ولا يخيل عند أخي معرفة كما يعرف الفصل بين طباع الشعراء من أهل الجاهلية وبين المخضرمين وبين المحدثين ويميز بين من يجري على شاكلة طبعه وغريزة نفسه وبين من يشتغل بالتكلف والتصنع وبين من يصير التكلف له كالمطبوع وبين من كان مطبوعه كالتعمل المصنوع هيهات هيهات هذا أمر وان دق فله قوم يقتلونه علما وأهل يحيطون به فهما ويعرفونه اليك ان شئت ويصورونه لديك ان أردت ويجلونه على خواطرك ان أحببت ويعرضونه لفطنتك ان حاولت وقد قال القائل

للحرب والضرب أقوام لها خلقوا ● وللدواوين كتاب وحساب

ولكل عمل رجال ولكل صنعة ناس وفي كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط ولكن قد قل من يميز في هذا الفن خاصة وذهب من يحصل في هذا الشأن الا قليلا فان كنت ممن هو بالصفة

التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات والتحقق بمجاري البلاغات فانما يكفيك التأمل ويغنيك التصور وان كنت في الصنعة مرمدا وفي المعرفة بها متوسطا فلابد لك من التقليد ولاغنى بك عن التسليم أن الناقص في هذه الصنعة كالخارج عنها والشادى فيها كالبائن منها فان أراد ان يقرب عليه أمرا ويفسح له طريقا ويفتح له بابا ليعرف به اعجاز القرآن فانا نضع بين يديه الامثلة ونعرض عليه الاساليب ونصور له صورة كل قبيل من النظم والنثر ونحضر له من كل فن من القول شيأ يتأمله حق تأمله ويراعيه حق مراعاته فيستدل استدلال العالم ويستدرك استدراك الناقد ويقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية الطالع عن الالهية الجامع بين الحكم والحكم والاخبار عن الغيوب والغائبات والمتضمن لمصالح الدنيا والدين والمستوعب لحلية اليقين والمعانى المخترعة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالالفاظ الشريفة على تفننها وتصرفها ونعمد الى شئ من الشعر المجمع عليه فنبين وجه النقص فيه وندل على انحطاط رتبته ووقوع أبواب الخلل فيه حتى اذا تأمل ذلك وتأمل ما نذكره من تفصيل اعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته انكشف له واتضح وثبت ما وصفناه لديه ووضح وليعرف حدود البلاغة ومواقع البيان والبراعة ووجه التقدم في الفصاحة وذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ان الفارسي سئل فقيل له ما البلاغة فقال معرفة الفصل من الوصل وسئل اليوناني عنها فقال تصحيح الاقسام واختيار الكلام وسئل الرومي عنها فقال حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة وسئل الهندى عنها فقال وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة وقال مرة التماس حسن الموقع والمعرفة بساحات القول وقلة الخرق عما التبس من المعاني أو غمض وشرد من اللفظ وتعذر وزينته ان تكون الشمائل موزونة والالفاظ معدلة واللهجة نقية وأن لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ولا يدقق المعانى كل التدقيق ولا ينقح الالفاظ كل التنقيح ويصفيها كل التصفية ويهذبها بغاية التهذيب وأما البراعة فيما يذكر أهل اللغة الحذق بطريقة الكلام وتجويده وقد يوصف بذلك كل متقدم في قول أو صناعة وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها منهم من عبر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى وقد قيل معناها الاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس على عبارات جلية ومعان نقية بهية والذى يصور عندك ما ضمناه تصويره ويحصل عندك معرفته اذا كنت في صنعة الادب متوسطا وفي علم العربية متبينا ان تنظر أولا في نظم القرآن ثم في شئ من كلام النبي صلى الله عليه وسلم فتعرف الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين فان

تبين لك الفصل ووقعت على جلية الامر وحقيقة الفرق فقد أدركت الغرض وصادفت المقصد وان لم تفهم الفرق ولم تقع على الفصل فلا بد لك من التقليد وعلمت انك من جملة العامة وان سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان

خطبة النبى صلى الله عليه وسلم

روى طلحة بن عبيد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على منبره يقول ألا أيها الناس توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا وبادروا الاعمال الصالحة قبل أن تشغلوا وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتؤجروا وتنصروا واعلموا ان الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة فى مقامى هذا فى عامى هذا فى شهرى هذا الى يوم القيامة حياتى ومن بعد موتى فمن تركها وله امام فلا جمع الله له شمله ولا بارك له فى أمره ألا ولا حج له ألا ولا صوم له ألا ولا صدقة له ألا ولا بر له ألا ولا يؤم اعرابى مهاجرا ألا ولا يؤم فاجر مؤمنا الا ان يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه

خطبة له صلى الله عليه وسلم

أيها الناس ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ان المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله تعالى قاض عليه فيه فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار

خطبة له صلى الله عليه وسلم

ان الحمد لله أحمده وأستعينه نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ان أحسن الحديث كتاب الله قد أفلح من زينه الله فى قلبه وأدخله فى الاسلام بعد الكفر واختاره على ما سواه من أحاديث الناس انه أصدق الحديث وأبلغه أحبوا من أحب الله وأحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقسوا عليه قلوبكم اعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ اتقوا الله حق تقاته وصدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم والسلام عليكم ورحمة الله

خطبة له صلى الله عليه وسلم فى أيام التشريق

قال بعد حمد الله أيها الناس هل تدرون فى أى شهر أنتم وفى أى يوم أنتم وفى أى بلد أنتم

قالوا فى يوم حرام وشهر حرام وبلد حرام قال ألا فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا الى يوم تلقونه ثم قال اسمعوا منى تعيشوا ألا لا تظالموا ثلاثا ألا انه لا يحل مال امرئ مسلم الا بطيب نفس منه ألا ان كل دم ومال ومأثرة كانت فى الجاهلية تحت قدمى هذه ألا وان أول دم وضع دم ربيعة بن الحرث ابن عبد المطلب كان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل ألا وان كل ربا كان فى الجاهلية موضوع ألا وان الله تعالى قضى ان أول ربا يوضع ربا عمى العباس لكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ألا وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ألا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا وان الشيطان قد يئس ان يعبده المصلون ولكن فى التحريش بينكم اتقوا الله فى النساء فانهن عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيأ وان لهن عليكم حقا ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم أحدا غيركم فان خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف فانما أخذتموهن بأمانة الله تعالى واستحللتم فروجهن بكلمة الله ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ثم بسط يده فقال ألا هل بلغت ألا هل بلغت ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أبلغ من سامع

خطبته صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة ثم قال لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ألا كل مأثرة أودم أومال يدعى فهو تحت قدمى هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وقتل الخطأ العمد بالسوط والعصا فيه الدية مغلظة منها أربعون خلفة فى بطونها أولادها يامعشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم خلق من تراب ثم تلا هذه الآية يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى الآية يامعشر قريش أو يا أهل مكة ماترون انى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ قال فاذهبوا فأنتم الطلقاء

خطبته صلى الله عليه وسلم بالخيف

روى زيد بن ثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب بالخيف من منى فقال نضر الله عبدا سمع مقالتى فوعاها ثم أداها الى من لم يسمعها فرب حامل فقه لا فقه له ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن اخلاص العمل لله والنصيحة لأولى الامر ولزوم الجماعة ان دعوتهم تكون من ورائه ومن كان همه الآخرة

جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة ومن كان همه الدنيا فرّق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له

خطبة له صلى الله عليه وسلم

(رواها أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه)

خطب بعد العصر فقال ألا ان الدنيا خضرة حلوة ألا وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ألا لا يمنعن رجلا مخافة الناس ان يقول الحق اذا علمه قال ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس الا حمرة على أطراف السعف فقال انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى

كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى ملك فارس

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فانى أنا رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فاسلم تسلم

كتاب له صلى الله عليه وسلم الى النجاشى

من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة سلم أنت فانى أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم من طين بيده ونفخه وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وان تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى وانى أدعوك وجنودك الى الله تعالى فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى

نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيه الناس ويكف فيه بعضهم عن بعض على انه من أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير اذن وليه ردّه عليهم ومن جاء قريشا ممن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يردّوه عليه وان بيننا عيبة مكفوفة وانه لا اسلال ولا اغلال وانه من أحب ان يدخل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده دخل فيه ومن أحب ان يدخل فى عهد قريش وعهدهم دخل فيه وانك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة فاذا كان عاما قابلا خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا وان معك سلاح الراكب والسيوف فى القرب فلا تدخلها بغير * هذا ولا أطول عليك واقتصر على ما ألقيته اليك

فان كان لك فى الصنعة حظ أو كان لك فى هذا المعنى حس أو كنت تضرب فى الأدب بسهم أو فى العربية بقسط وان قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب فما أحسب انه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن وبين مانسخناه لك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبه ورسائله وما عساك تسمعه من كلامه و يتساقط اليك من ألفاظه وأقدر انك ترى بين الكلامين بونا بعيدا وأمدا مديدا وميدانا واسعا ومكانا شاسعا فان قلت لعله ان يكون تعمل للقرآن وتصنع لنظمه وشبه عليك الشيطان ذلك من خبثه فتثبت فى نفسك وارجع الى عقلك واجمع لبك وتيقن ان الخطب يحتشد لها فى المواقف العظام والمحافل الكبار والمواسم الضخام ولا يتجوز فيها ولا يستهان بها والرسائل الى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه و يشمر لها عن جد واجتهاد فكيف يقع بها الاخلال وكيف يتعرض للتفريط فستعلم لامحالة ان نظم القرآن من الامر الالهى وان كلام النبى صلى الله عليه وسلم من الامر النبوى فاذا أردت زيادة فى التبين وتقدما فى التعرف واشرافا على الجلية وفوزا بمحكم القضية فتأمل هداك الله مانسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء لتعلم ان نسجها و نسج مانقلنا من خطب النبى صلى الله عليه وسلم واحد وسبكها سبك غير مختلف وانما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين و بين شعر الشاعرين وذلك أمر له مقدار معروف وحد ينتهى اليه مضبوط فاذا عرفت ان جميع كلام الآدمى منهاج ولجملته طريق وتبينت مايمكن فيه من التفاوت نظرت الى نظم القرآن نظرة أخرى وتأملته مرة ثانية فتراعى بعد موقعه وعالى محله وموضعه وحكمت بواجب من اليقين وثلج الصدر بأصل الدين

﴿ خطبة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ﴾

قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فانى وليت أمركم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن وسن النبى صلى الله عليه وسلم وعلمنا فعلمنا واعلموا ان أكيس الكيس التقى وان أحمق الحمق الفجور وان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه وان أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق أيها الناس انما أنا متبع ولست بمبتدع فان أحسنت فأعينونى وان زغت فقومونى

﴿ عهد لأبى بكر الصديق الى عمر رضى الله عنهما ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ساعة يؤمن فيها الكافر ويتقى فيها الفاجر انى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فان بر وعدل فذلك ظنى به ورأيى فيه وان جار و بدل فلا

علم لى بالغيب والخير أردت لكم ولكل امرئ ما اكتسب من الاثم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون وفى حديث عبد الرحمن بن عوف رحمة الله عليه قال دخلت على أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى علته التى مات فيها فقلت أراك بارئا يا خليفة رسول الله فقال أما انى على ذلك لشديد الوجع وما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد على من وجعى انى وليت أموركم خيركم فى نفسى فكلكم ورم أنفه ان يكون له الامر من دونه والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير ولتألمن النوم على الصوف الاذربى كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان والذى نفسى بيده لان يقدم أحدكم فتضرب رقبته فى غير حد خير له من ان يخوض غمرات الدنيا يا هادى الطريق جرت انما هو والله الفجر أو البحر قال فقلت خفض عليك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان هذا يهيضك الى ما بك فوالله ما زلت صالحا مصلحا لا تأسى على شئ فاتك من أمر الدنيا ولقد تخليت بالامر وحدك فما رأيت الا خيرا وله خطب ومقامات مشهورة اقتصرنا عنها على ما نقلنا منها قصة السقيفة

(نسخة كتاب)

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهم سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذى لا اله الا هو أما بعد فانا عهدناك وأمر نفسك لك مهم فأصبحت وقد وليت أمر هذه الامة أحمرها وأسودها يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع ولكل حصته من العدل فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك فانا نحذرك يوما تعنو فيه الوجوه وتجب فيه القلوب وانا كنا نتحدث ان هذه الامة ترجع فى آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية أعداء السريرة وانا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا فانا انما كتبنا اليك نصيحة والسلام

فكتب اليهما من عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل سلام عليكما فانى أحمد اليكما الله الذى لا اله الا هو أما بعد فقد جاءنى كتابكما تزعمان انه بلغكما انى وليت أمر هذه الامة أحمرها وأسودها يجلس بين يدى الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبتما ان انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك وانه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك الا بالله وكتبتما تحذرانى ما حذرت به الامم قبلنا وقديما كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة أو النار ثم توفى كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب وكتبتما تزعمان ان أمر هذه الامة يرجع فى آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية أعداء السريرة ولستم بذاك وليس هذا ذلك الزمان ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة فتكون رغبة بعض الناس

الى اصلاح دينهم ورهبة بعض الناس اصلاح دنياهم وكتبتما تعوذاني بالله ان أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذى نزل من قلوبكما وانما كتبتما نصيحة لى وقد صدقتماني فتعهداني منكما بكتاب ولا غنى بى عنكما

عهد من عهود عمر رضى الله عنه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبدالله بن قيس سلام عليك أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أوحرم حلالا ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه عقلك وهديت لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ثم اعرف الاشباه والامثال وقس الامور عند ذلك واعمد الى أشبهها بالحق واجعل لمن ادّعى حقا غائبا أو بينة أمرا ينتهى اليه فان أحضر بينة أخذت له بحقه والا استحللت عليه القضية فانه أنفى للشك وأجلى للعمى المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادة زور أوظنينا فى ولاء أونسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالايمان والبينات واياك والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه و بين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام ولعمر رضى الله عنه خطب مشهورة مذكورة فى التاريخ لم ننقلها اختصارا

ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه

(خطبة له رضى الله عنه)

قال ان لكل شئ آفة وان لكل نعمة عاهة فى هذا الدين عيابون ظنانون يظهرون لكم ماتحبون و يسرّون ماتكرهون يقولون لكم وتقولون طغام مثل النعام يتبعون أوّل ناعق أحب مواردهم اليهم النازح لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم علىّ ولكنه وقمكم وقمعكم وزجركم زجر النعام المخزمة والله انى لأقرب ناصرا وأعز نفرا وأقمن ان قلت هلم أن تجاب دعوتى من عمر هل تفقدون من حقوقكم شيأ فمالى لا أفعل فى الحق ما أشاء اذا فلم كنت اماما

كتابه الى على حين حضر رضى الله عنهما

أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين وطمع فى من لا يدفع عن نفسه فاذا أتاك كتابى هذا فاقبل الى على كنت أم لى

فان كنت مأكولا فكن خير آكل * والا فأدركنى ولما أمزق

(ومن كلام على رضى الله عنه) قال لما قبض أبو بكر رضى الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبى صلى الله عليه وسلم وجاء على باكيا مسترجعا وهو يقول اليوم انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على باب البيت الذى فيه أبو بكر فقال رحمك الله أبا بكر كنت الف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنسه وثقته وموضع سره كنت أول القوم اسلاما وأخلصهم ايمانا وأشدهم يقينا وأخوفهم لله وأعظمهم غناء فى دين الله وأحوطهم على رسوله وآمنهم على الاسلام وآمنهم على أصحابه أحسنهم صحبة وأكثرهم مناقب وأفضلهم سوابق وأرفعهم درجة وأقربهم وسيلة وأقربهم برسول الله صلى الله عليه وسلم سننا وهديا ورحمة وفضلا وأشرفهم منزلة وأكرمهم عليه وأوثقهم عنده جزاك الله عن الاسلام وعن رسوله خيرا كنت عنده بمنزلة السمع والبصر صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس فسماك الله فى تنزيله صديقا فقال والذى جاء بالصدق وصدق به واسيته حين بخلوا وقمت معه عند المكاره حين عنه قعدوا وصحبته فى الشدة أكرم الصحبة ثانى اثنين وصاحبه فى الغار والمنزل عليه السكينة والوقار ورفيقه فى الهجرة وخليفته فى دين الله وفى أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس فنهضت حين وهن أصحابك وبرزت حين استكانوا وقويت حين ضعفوا وقمت بالامر حين فشلوا ونطقت حين تتعتعوا ومضيت بنور اذ وقفوا واتبعوك فهدوا وكنت أصوبهم منطقا وأطولهم صمتا وأبلغهم قولا وأكثرهم رأيا وأشجعهم نفسا وأعرفهم بالامور وأشرفهم عملا كنت للدين يعسوبا أولا حين نفر عنه الناس وآخرا حين اقبلوا وكنت للمؤمنين أبا رحيما اذ صاروا عليك عيالا فحملت أثقال ما ضعفوا ورعيت ما أهملوا وحفظت ما أضاعوا وشمرت اذ خنعوا وعلوت اذ هلعوا وصبرت اذ جزعوا وأدركت أوتار ما طلبوا وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ونالوا بك ما لم يحتسبوا وكنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن الناس عليه فى صحبتك وذات يدك وكنت كما قال ضعيفا فى بدنك قويا فى أمر الله متواضعا فى نفسك عظيما عند الله جليلا فى أعين الناس كبيرا فى أنفسهم لم يكن لاحد فيك مغمز ولا لاحد مطمع ولا لمخلوق عندك هوادة الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق القريب والبعيد عندك سواء أقرب الناس اليك أطوعهم لله شأنك الحق والصدق والرفق

قولك حكم وأمرك حزم ورأيك علم وعزم فأبلغت وقد نهج السبيل وسهل العسير وأطفأت النيران واعتدل بك الدين وقوى الايمان وظهر أمر الله ولو كره الكافرون واتعبت من بعدك اتعابا شديدا وفزت بالجد فوزا مبينا فجللت عن البكاء وعظمت رزيتك في السماء وهدت مصيبتك الانام فانا لله وانا اليه راجعون رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثلك أبدا فألحقك الله بنبيه ولا حرمنا أجرك ولا أضلنا بعدك وسكت الناس حتى انقضى كلامه ثم بكوا حتى علت أصواتهم

﴿ خطبة أخرى لعلى رضى الله عنه ﴾

أما بعد فان الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع وان الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع وان المضمار اليوم وغدا السباق ألا وانكم في أيام مهل ومن ورائه أجل فمن أخلص في أيام أمله فقد فاز ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أمله ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة ألا وانى لم أر كالجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها ألا وانه من لم ينفعه الحق يضره الباطل ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال ألا وانكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد ألا وان أخوف ما أخاف عليكم الهوى وطول الامل (وخطب) فقال بعد حمد الله أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثا فيلهو ولا أهمل سدى فيلغو وما دنياه التى تحسنت اليه بخلف من الآخرة التى قبحها سوء النظر اليه وما الخسيس الذى ظفر به من الدنيا بأعلى همته كالآخر الذى ظفر به من الآخرة من سهمته

﴿ وكتب على رضى الله عنه الى عبد الله بن عباس رحمه الله وهو بالبصرة ﴾

أما بعد فان المرء يسره بدرك ما لم يكن ليحرمه ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فليكن سرورك بما قدمت من أجر أو منطق وليكن أسفك فيما فرطت فيه من ذلك وانظر ما فاتك من الدنيا فلا تكثر عليه جزعا وما نلته فلا تنعم به فرحا وليكن همك لما بعد الموت

﴿ كلام لابن عباس رضى الله عنه ﴾

قال عتبة بن أبى سفيان لابن عباس ما منع أمير المؤمنين ان يبعثك مكان أبى موسى يوم الحكمين قال منعه والله من ذلك حاجز القدر وقصر المدة ومحنة الابتلاء أما والله لو بعثنى مكانه لاعترضت له فى مدارج نفسه ناقضا ما أبرم ومبرما ما نقض أسف اذا طار وأطير اذا أسف ولكن مضى قدر وبقى أسف ومع يومنا غد والآخرة خير لامير المؤمنين من الاولى

﴿ خطبة لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه ﴾

أصدق الحديث كتاب الله وأصدق العرا كلمة التقوى خير الملل ملة ابراهيم وأحسن

السنن سنة النبي صلى الله عليه وسلم خير الامور أوساطها وشر الامور محدثاتها ماقل وكفى خير مما كثر وألهى خير الغنى غنى النفس وخير ما ألقى في القلب اليقين الخرجماع الاثم النساء حبالة الشيطان الشباب شعبة من الجنون حب الكفاية مفتاح المعجزة من الناس من لا يأتي الجماعة الا دبرا ولا يذكر الله الا هجرا أعظم الخطايا اللسان الكذوب سباب المؤمن فسق وقتاله كفر وأكل لحمه معصية من يتأل على الله يكذبه من يغفر يغفر له مكتوب في ديوان المحسنين من عفا عفي عنه الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره الامور بعواقبها ملاك العمل خواتيمه أشرف الموت الشهادة من يعرف البلاء يصبر عليه ومن لا يعرف البلاء ينكره

خطبة لمعاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه

قال الراوي لما حضرته الوفاة قال لمولى له من بالباب فقال نفر من قريش يتباشرون بموتك فقال ويحك ولم ثم أذن للناس فحمد الله فأوجز ثم قال أيها الناس انا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن شديد يعد فيه المحسن مسيئا ويزداد الظالم فيه عتوا لا ننتفع بما علمنا ولا نسأل عما جهلنا ولا نتخوف من قارعة حتى تحل بنا فالناس على أربعة أصناف منهم من لا يمنعه الفساد في الارض الا مهانة نفسه وكلال حده ونضيض وفره ومنهم من المسلط سيفه والمجلب برجله والمعلن بشره قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يقرعه وبئس المتجر ان تراها لنفسك ثمنا ومما لك عند الله عوضا ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا قد طامن من شخصه وقارب من خطوه وشمر من ثوبه وزخرف نفسه للامانة واتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية ومنهم من أقعده عن الملك ضؤله في نفسه وانقطاع سببه فقصرته الحال فتحلى باسم القناعة وتزين بلباس الزهاد وليس من ذلك في مراح ولا مغدى وبقي رجال أغض أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر فهم بين شديد نادوخائف متقمع وساكت مكعوم وداع مخلص وموجع ثكلان قد أخملتهم التقية وشملتهم الذلة فهم في بحر أجاج أفواههم دامية وقلوبهم قريحة قد وعظوا حتى ملوا وقهروا حتى ذلوا وقتلوا حتى قلوا فلتكن الدنيا في عيونكم أقل من حثالة القرظ وقراضة الجلم واتعظوا بمن كان قبلكم قبل ان يتعظ بكم من بعدكم فارفضوها ذميمة فانها قد رفضت من كان أشغف بها منكم

خطبة لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

أيها الناس انكم ميتون ثم انكم مبعوثون ثم انكم محاسبون فلعمري لئن كنتم صادقين لقد قصرتم ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم يا أيها الناس انه من يقدر له رزق برأس جبل أو

بحضيض أرض يأنه فاجملوا فى الطلب

خطبة للحجاج بن يوسف

حمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أهل العراق ويا أهل الشقاق والنفاق ومساوى الاخلاق وبنى اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الاماء والفقع بالقرقر انى سمعت تكبيرا لا يراد به الله وانما يراد به الشيطان وانما مثلى ومثلكم ما قاله ابن براقة الهمدانى

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم * فهل أنا فى ذا يال همدان ظالم

متى تجمع القلب الذكى وصارما * وانفا حميا تجتنبك المظالم

أما والله لا تقرع عصا عصا الا جعلتها كأمس الدابر

خطبة لقس بن ساعدة الايادى

أخبرنى محمد بن على الانصارى بن محمد بن عامر قال حدثنا على بن ابراهيم حدثنا عبد الله بن داود بن عبد الرحمن العمرى قال حدثنا الانصارى على بن محمد الحنظلى من ولد حنظلة الغسيل حدثنا جعفر بن محمد عن محمد بن حسان عن محمد بن حجاج اللخمى عن مجالد عن الشعبى عن ابن عباس قال لما وفد وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيكم يعرف قس بن ساعدة قالوا كلنا نعرفه يا رسول الله قال لست أنساه بعكاظ اذ وقف على بعير له أحمر فقال أيها الناس اجتمعوا واذا اجتمعتم فاسمعوا واذا سمعتم فعوا واذا وعيتم فقولوا واذا قلتم فاصدقوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت أما بعد فان فى السماء لخبرا وان فى الارض لعبرا مهاد موضوع وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحار لا تغور أقسم بالله قس قسما حقا لا كاذبا فيه ولا آثما لئن كان فى الارض رضا ليكونن سخط ان لله تعالى دينا هو أحب اليه من دينكم الذى أنتم عليه وقد أتاكم أوانه ولحقتكم مدته مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيكم يروى شعره فأنشدوه

فى الذاهبين الاولين * ن من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا * للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومى نحوها * يسعى الاصاغر والاكابر

لا يرجع الماضى الى * ولا من الباقين غابر

أيقنت انى لا محا * لة حيث صار القوم صائر

أخبرنى الحسن بن عبد الله بن سعيد حدثنا على بن الحسين بن اسماعيل حدثنا محمد بن زكريا حدثنا عبد الله بن الضحاك عن هشام عن أبيه ان وفدا من اياد قدموا على رسول

الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عن حال قس بن ساعدة فقالوا قال قس

يا ناعي الموت والاموات في جدث * عليهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فان لهم يوما يصاح بهم * كما ينبه من نوماته الصعق
منهم عراة ومنهم في ثيابهم * منها الجديد ومنها الاورق الخلق

مطر ونبات وآباء وامهات وذاهب وآت وآيات في اثر آيات واموات بعد اموات ضوء وظلام وليال وايام وغني وفقير وشقي وسعيد ومحسن ومسيئ أين الارباب الفعلة ليصلحن كل عامل عمله كلا بل هو الله واحد ليس بمولود ولا والد اعاد وابدى واليه المآب غدا امابعد يامعشر اياد اين ثمود وعاد واين الآباء والاجداد اين الحسن الذي لم يشكر اين الظلم الذي لم ينقم كلا ورب الكعبة ليعودن مابدا ولئن ذهب يوم ليعودن يوم قال وهو قس بن ساعدة بن حذاق بن ذهل بن ايادبن نزار اول من آمن بالبعث من اهل الجاهلية واول من توكأ على عصا واول من تكلم بأمابعد

خطبة لأبي طالب

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا وجعلنا الحكام على الناس وان محمد بن عبد الله بن اخي لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به بركة وفضلا وعدلا ومجدا ونبلا وان كان في المال مقلا فان المال عارية مسترجعة وظل زائل وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما اردتم من الصداق فعلي * قد نسخت لك جملا من كلام الصدر الاول ومحاوراتهم وخطبهم واحيلك فيما لم انسخ على التواريخ والكتب المصنفة في هذا الشأن فتأمل ذلك وسائر ماهو مسطر من الاخبار المأثورة عن السلف واهل البيان واللسان والفصاحة والفطن والالفاظ المنثورة والمخاطبات الدائرة بينهم والامثال المنقولة عنهم ثم انظر بسكون طائر وخفض جناح وتفريغ لب وجمع عقل في ذلك فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين وتعلم ان نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ والخطيب والخطيب والشاعر والشاعر وبين نظم القرآن جملة فان خيل اليك أو شبه عليك وظننت انه يحتاج ان يوازن بين نظم الشعر والقرآن لان الشعر افصح من الخطب وابرع من الرسائل وادق مسلكا من جميع اصناف المحاورات ولذلك قالوا له صلى الله عليه وسلم هو شاعر أو ساحر وسول اليك الشيطان ان الشعر ابلغ واعجب وارق وابرع واحسن الكلام وابدع فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين وكلام بين المحققين * اسمعت افضل من رأيت من اهل العلم بالادب والحذق بهذه الصناعة مع تقدمه في الكلام

يقول ان الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى فى الشعر لان الشعر يضيق نطاق الكلام ويمنع القول من انتهائه ويصده عن تصرفه على سننه وحضره من يتقدم فى صنعة الكلام فراجعه فى ذلك وذكر انه لا يمتنع ان يكون الشعر أبلغ اذا صادف شروط الفصاحة وأبدع اذا تضمن أسباب البلاغة ويشهد عندى للقول الاخير ان معظم براعة كلام العرب فى الشعر ولا نجد فى منثورهم ما نجد فى منظومه وان كان قد أحدث البراعة فى الرسائل على حد لم يعهد فى سالف أيام العرب ولم ينقل من دواوينهم وأخبارهم وهو وان ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه ويضم أطرافه ونواحيه فهو اذا تهذب فى بابه ووفى له جميع أسبابه لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب وقد حكى عن المتنبى انه كان ينظر فى المصحف فدخل اليه بعض أصحابه فأنكر نظره فيه لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده فقال له هذا المكى على فصاحته كان مفحما فان صحت هذه الحكاية عنه فى الحاده عرف بها انه كان يعتقد ان الفصاحة فى قول الشعر أبلغ واذا كانت الفصاحة فى قول الشعر أولم تكن وبينا ان نظم القرآن يزيد فى فصاحته على كل نظم ويتقدم فى بلاغته على كل قول بما يتضح به الامر اتضاح الشمس ويتبين به بيان الصبح وقفت على جلية هذا الشأن فانظر فيما نعرضه عليك ما نعرضه وتصور بفهمك ما نصوره ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن وتأمل ما نرتبه ينكشف لك الحق واذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك فمن سبيلنا ان نعمد الى قصيدة متفق على كبر محلها وصحة نظمها وجودة بلاغتها ومعانيها واجماعهم على ابداع صاحبها فيها مع كونه من الموصوفين بالتقدم فى الصناعة والمعروفين بالحذق فى البراعة فنوقفك على مواضع خللها وعلى تفاوت نظمها وعلى اختلاف فصولها وعلى كثرة فضولها وعلى شدة تعسفها وبعض تكلفها وما تجمع من كلام رفيع يقرن بينه وبين كلام وضيع وبين لفظ سوقى يقرن بلفظ ملوكى وغير ذلك من الوجوه التى يجىء تفصيلها ونبين ترتيبها وتنزيلها ❊ فأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم انه قرآن فهو أخس من ان نشتغل به وأسخف من ان نفكر فيه وانما نقلنا منه طرفا ليتعجب القارئ وليتبصر الناظر فانه على سخافته قد أضل وعلى ركاكته قد أذل وميدان الجهل واسع ومن نظر فيما نقلناه عنه وفهم موضع جهله كان جديرا ان يحمد الله على ما رزقه من فهم وآتاه من علم فما كان يزعم انه نزل عليه من السماء والليل الاطخم والذئب الادلم والجذع الازلم ما انتهكت أسيد من محرم وذلك قد ذكر فى خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه وقال أيضا والليل الدامس والذئب الهامس ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس وكان يقول والشاء وألوانها وأعجبها السود وألبانها والشاة السوداء واللبن الابيض انه لعجب محض وقد حرم المذق فما لكم

لا تجتمعون * وكان يقول ضفدع بنت ضفدعين نقي ماتنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون وكان يقول والمبديات زرعا والحاصدات حصدا والذاريات قمحا والطاحنات طحنا والخابزات خبزا والثاردات ثردا واللاقمات لقما اهالة وسمنا لقد فضلتم على أهل الوبر وماسبقكم أهل المدر ريفكم فامنعوه والمعتر فآووه والباغي فناووه وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان وكانت تنبأت فاجتمع مسيلمة معها فقالت له ماأوحي اليك فقال ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشا وقالت فما بعد ذلك قال أوحي الي ان الله خلق النساء أفواجا وجعل الرجال لهن أزواجا فنولج فيهن قعسا ايلاجا ثم نخرجها اذا نشاء اخراجا فينتجن لنا سخالا انتاجا فقالت أشهد انك نبي ولم ننقل كل ماذكر من سخفه كراهية التثقيل وروى انه سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقواما قدموا عليه من بني حنيفة عن هذه الالفاظ فحكوا بعض مانقلناه فقال أبو بكر سبحان الله ويحكم ان هذا الكلام لم يخرج عن آل فأين كان يذهب بكم ومعنى قوله لم يخرج عن آل أي عن ربوبية ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سخف هذا الكلام فنرجع الآن الى ماضمناه من الكلام على الاشعار المتفق على جودتها وتقدم أصحابها في صناعتهم ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب وتباعد مواقع البلاغة وتستدل على مواضع البراعة وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته وتعلم انه قد أبدع في طرق الشعر أمورا اتبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها الى مايتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه والتمليح الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله والوجوه التي ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة وأسباب تحمد وأمور تؤثر وتمدح وقد ترى الادباء أولا يوازنون بشعره فلانا وفلانا ويضمون أشعارهم الى شعره حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره في أشياء لطيفة وامور بديعة وربما فضلوهم عليه أوسووا بينهم وبينه أوقربوا موضع تقدمهم عليه وبروزه بين أيديهم ولما اختاروا قصيدته في السبعيات أضافوا اليها أمثالها وقرنوا بها نظائرها ثم تراهم يقولون لفلان لامية مثلها ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق الى معارضته وتساويه في طريقته وربما عارت في وجهه على أشياء كثيرة وتقدمت عليه في أسباب عجيبة واذا جاز الى تعداد محاسن شعره كان أمرا محصورا وشيأ معروفا أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره وتشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه وتنظر الى المحدثين كيف توغلوا الى حيازة المحاسن منهم من جمع رصانة الكلام الى سلاسته

ومتانته الى عذوبته والاصابة فى معناه الى تحسين بهجته حتى ان منهم من ان قصر عنه فى بعض تقدم عليه فى بعض لان الجنس الذى يرمون اليه والغرض الذى يتواردون عليه مما للآدمى فيه مجال وللبشرى فيه مثال فكل يضرب فيه بسهم و يفوز فيه بقدح ثم قد تتفاوت السهام تفاوتا وتتباين تباينا وقد تتقارب تقاربا على حسب مشاركتهم فى الصنائع ومساهمتهم فى الحرف ونظم القرآن جنس مميز وأسلوب متخصص وقبيل عن النظير متخلص فاذا شئت ان تعرف عظم شأنه فتأمل مانقوله فى هذا الفصل لامرئ القيس فى اجود أشعاره ومانبين لك من عواره على التفصيل وذلك قوله

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها * لما نسجتها من جنوب وشمأل

الذين يتعصبون له ويدعون محاسن الشعر يقولون هذا من البديع لانه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر العهد والمنزل والحبيب وتوجع واسترجع كله فى بيت ونحو ذلك وانما بيناهذا لئلايقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن ان كانت ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة ان وجدت تأمل أرشدك الله وانظر هداك الله أنت تعلم انه ليس فى البيتين شئ قد سبق فى ميدانه شاعرا ولا تقدم به صانعا وفى لفظه ومعناه خلل فأول ذلك انه استوقف من يبكى لذكر الحبيب وذكراه لا يقتضى بكاء الخلى وانما يصح طلب الاسعاد فى مثل هذا على ان يبكى لبكائه و يرق لصديقه فى شدة برحائه فأما ان يبكى على حبيب صديقه وعشيق رفيقه فأمر محال فان كان المطلوب وقوفه و بكاؤه أيضا عاشقا صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر لانه من السخف ان لا يغار على حبيبه وان يدعو غيره الى التغازل عليه والتواجد معه فيه ثم فى البيتين مالا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الاماكن من الدخول وحومل وتوضح والمقراة وسقط اللوى وقد كان يكفيه ان يذكر فى التعريف بعض هذا وهذا التطويل اذا لم يفد كان ضربا من العى ثم ان قوله لم يعف رسمها ذكر الاصمعى من محاسنه انه باق فنحن نحزن على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا وهذا بأن يكون من مساويه أولى لانه ان كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم الا جدة عهد وشدة وجد وانما فزع له الاصمعى الى افادته هذه الفائدة خشية ان يعاب عليه فيقال أى فائدة لان يعرفنا انه لم يعف رسم منازل حبيبه وأى معنى لهذا الحشو فذكر ما يمكن ان يذكر ولكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل ثم فى هذه الكلمة خلل آخر لانه عقب البيت بأن قال فهل عند رسم دارس من معول فذكر أبو عبيدة انه رجع فأكذب نفسه كما قال زهير

قف بالديار التى لم يعفها القدم * نعم وغيرها الارواح والديم

وقال غيره أراد بالبيت الاول انه لم ينطمس أثره كله وبالثاني انه ذهب بعضه حتى لا يتناقض الكلامان وليس في هذا انتصار لان معنى عفا ودرس واحد فاذا قال لم يعف رسمها ثم قال قد عفا فهو تناقض لامحالة واعتذار أبي عبيدة أقرب لو صح ولكن لم يرد هذا القول ورد الاستدراك كما قاله زهير فهو الى الخلل أقرب وقوله لما نسجتها كان ينبغي ان يقول لما نسجها ولكنه تعسف فجعل ما في تأويل التأنيث لانها في معنى الريح والاولى التذكير دون التأنيث وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف وقوله لم يعف رسمها كان الاولى ان يقول لم يعف رسمه لانه ذكر المنزل فان كان رد ذلك الى هذه البقاع والاماكن التي المنزل واقع بينها فذلك خلل لانه انما يريد صفة المنزل الذي نزله حبيبه بعفائه أو بأنه لم يعف دون ما جاوره وان أراد بالمنزل الدار حتى أنث فذلك أيضا خلل ولو سلم من هذا كله ومما نسكره ذكره كراهية التطويل لم نشك في ان شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين بل يزيد عليهما ويفضلهما ثم قال

وقوفا بها صحبي عليّ مطيهم * يقولون لاتهلك أسى وتجمل

وان شفائي عبرة مهراقة * فهل عند رسم دارس من معول

وليس في البيتين أيضا معنى بديع ولا لفظ حسن كالاولين والبيت الاول منهما متعلق بقوله قفا نبك فكأنه قال قفا وقوف صحبي بها على مطيهم أو قفا حال وقوف صحبي وقوله بها متأخر في المعنى وان تقدم في اللفظ ففي ذلك تكلف وخروج عن اعتدال الكلام والبيت الثاني مختل من جهة انه قد جعل الدمع في اعتقاده شافيا كافيا فما حاجته بعد ذلك الى طلب حيلة اخرى وتحمل ومعول عند الرسوم ولو أراد ان يحسن الكلام لوجب ان يدخل على ان الدمع لا يشفيه لشدة مابه من الحزن ثم يسائل هل عند الربع من حيلة اخرى وقوله

كدأبك من ام الحويرث قبلها * وجارتها ام الرباب بمأسل

اذا قامتا تضوع المسك منهما * نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

أنت لاتشك في ان البيت الاول قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وان كان منزوع المعنى وأما البيت الثاني فوجه التكلف فيه قوله اذا قامتا تضوع المسك منهما ولو أراد ان يجود أفادان بهما طيبا على كل حال فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير ثم فيه خلل آخر لانه بعد ان شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص وقوله نسيم الصبا في تقدير المنقطع عن المصراع الاول لم يصله به وصل مثله وقوله

ففاضت دموع العين مني صبابة * على النحر حتى بل دمعي محملي

ألا رب يوم لك منهن صالح * ولا سيما يوم بدارة جلجل

قوله ففاضت دموع العين ثم استعانته بقوله منى استعانة ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة وهو حشو غير مليح ولا بديع وقوله على النحر حشو آخر لان قوله بل دمعى محملى يغنى عنه و يدل عليه وليس بحشو حسن ثم قوله حتى بل دمعى محملى اعادة ذكر الدمع حشو آخر وكان يكفيه ان يقول حتى بلت محملى فاحتاج لاقامة الوزن الى هذا كله ثم تقديره انه قد أفرط فى افاضة الدمع حتى بل محمله تفريط منه وتقصير ولو كان أبدع لكان يقول حتى بل دمعى مغانيهم وعراصهم و يشبه ان يكون غرضه اقامة الوزن والقافية اذ الدمع يبعد ان يبل المحمل وانما يقطر من الواقف والقاعد على الارض أو على الذيل وان بله فلقلته وانه لا يقطر وأنت تجد فى شعر الخبزرزى ماهو أحسن من هذا البيت وأمتن وأعجب منه والبيت الثانى خال من المحاسن والبديع خاو من المعنى وليس له لفظ يروق ولا معنى يروع من طبائع السوقة فلا يرعك ثم ويله باسم موضع غريب وقال

ويوم عقرت للعذارى مطيتى * فياعجبا من رحلها المتحمل

فظل العذارى يرتمين بلحمها * وشحم كهداب الدمقس المفتل

تقديره اذكر يوم عقرت مطيتى أو يرده على قوله يوم بدارة جلجل وليس فى المصراع الاول من هذا البيت الا سفاهته قال بعض الادباء قوله ياعجبا يعجبهم من سفهه فى شبابه من نحره ناقته لهم وانما أراد ان لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعا عن الاول وأراد ان يكون الكلام ملائما له وهذا الذى ذكره بعيد وهو منقطع عن الاول وظاهره انه يتعجب من تحمل العذارى رحله وليس فى هذا تعجب كبير ولا فى نحر الناقة لهن تعجب وان كان يعنى به انهن حملن رحله وان بعضهن حملته فعبر عن نفسه برحله فهذا قليلا يشبه ان يكون عجبا لكن الكلام لا يدل عليه و يتجافى عنه ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شئ غريب ولا معنى بديع أكثر من سفاهته مع قلة معناه وتقارب أمره ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا والى هذا الموضع لم يمر له بيت رائع وكلام رائق وأما البيت الثانى فيعدونه حسنا و يعدون التشبيه مليحا واقعا وفيه شئ وذلك انه عرف اللحم ونكر الشحم فلا يعلم انه وصف شحمها وذكر تشبيه أحدهما بشئ واقع وعجز عن تشبيه القسمة الاولى فمرت مرسلة وهذا نقص فى الصنعة وعجز عن اعطاء الكلام حقه وفيه شئ آخر من جهة المعنى وهو انه وصف طعامه الذى اطعم من اضاف بالجودة وهذا قد يعاب وقد يقال ان العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيبا وانما الفرس هم الذين يرون هذا عيبا شنيعا واما تشبيه الشحم بالدمقس فشئ يقع للعامة و يجرى على ألسنتهم فليس بشئ قد سبق اليه وانما زاد المفتل للقافية وهذا مفيد ومع ذلك فلست اعلم العامة تذكر هذه الزيادة ولم يعد اهل الصنعة ذلك من البديع ورأوه

قسر بيا وفيه شئ آخر وهو ان تبجحه بما اطعم للاحباب مذموم وان سوغ التبجح بما اطعم للأضياف الا ان يورد الكلام مورد المجون وعلى طريق أبي نواس في المزاح والمداعبة وقوله

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ● فقالت لك الويلات انك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معا ● عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

قوله دخلت الخدر خدر عنيزة ذكره تكريرا لاقامة الوزن لا فائدة فيه غيره ولا ملاحة له ولا رونق وقوله في المصراع الاخير من هذا البيت فقالت لك الويلات انك مرجلي كلام مؤنث من كلام النساء نقله من جهته الى شعره وليس فيه غير هذا وتكريره بعد ذلك تقول وقد مال الغبيط يعني قتب الهودج بعد قوله فقالت لك الويلات انك مرجلي لا فائدة فيه غير تقدير الوزن والا فحكاية قولها الاول كاف وهو في النظم قبيح لانه ذكر مرة فقالت ومرة تقول في معنى واحد وفصل خفيف وفي مصراع الثاني أيضا تانيث من كلامهن وذكر أبو عبيدة انه قال عقرت بعيري ولم يقل ناقتي لانهم يحملون النساء على ذكور الابل لانها أقوى وفيه نظر لان الاظهر ان البعير اسم للذكر والانثى واحتاج الى ذكر البعير لاقامة الوزن وقوله

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ● ولا تبعديني من جناك المعلل
فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ● فألهيتها عن ذي تمائم مغيل

البيت الاول قريب النسج ليس له معنى بديع ولا لفظ شريف كأنه من عبارات المتخلفين في الصنعة وقوله فمثلك حبلى قد طرقت عابه عليه أهل العربية ومعناه عندهم حتى يستقيم الكلام فرب مثلك حبلى قد طرقت وتقديره انه زير نساء وانه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن لان الحبلى والمرضعة أبعد من الغزل وطلب الرجال والبيت الثاني في الاعتذار والاستهتار والتهيام وغير منتظم مع المعنى الذي قدمه في البيت الاول لان تقديره لا تبعديني عن نفسك فاني أغلب النساء وأخدعهن عن رأيهن وأفسدهن بالتغازل وكونه مفسدة لهن لا يوجب له وصلهن وترك ابعادهن اياه بل يوجب هجره والاستخفاف به لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش وركوبه كل مركب فاسد وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره وكقوله

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له ● بشق وتحتي شقها لم يحول
ويوما على ظهر الكثيب تعذرت ● علي وآلت حلفة لم تحلل

فالبيت الاول غاية في الفحش ونهاية في السخف وأي فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح ويذهب هذه المذاهب ويرد هذه الموارد ان هذا ليبغضه كل من سمع كلامه

ويوجب له المقت وهو لو صدق لكان قبيحا فكيف ويجوز ان يكون كاذبا ثم ليس فى البيت لفظ بديع ولا معنى حسن وهذا البيت متصل بالبيت الذى قبله من ذكر المرضع التى لها ولد محول فأما البيت الثانى وهو قوله ويوما تعجب منه وانه اشتدت وتعسرت عليه وحلفت عليه فهو كلام ردىء النسج لا فائدة لذكره لما ان حبيبته تمنعت عليه يوما وضح بسميه وبصفه وأنت تجد فى شعر المحدثين من هذا الجنس فى التغزل ما يذوب معه اللب وتطرب عليه النفس وهذا مما تستنكره النفس ويشمئز منه القلب وليس فيه شئ من الاحسان والحسن وقوله

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل * وان كنت قد أزمعت صرمى فاجملى

أغرك منى ان حبك قاتلى * وانك مهما تأمرى القلب يفعل

فالبيت الاول فيه ركاكة جدا وتأنيث ورقة ولكن فيها تخنيث ولعل قائلا يقول ان كلام النساء بما يلائمهن من الطبع أوقع فى الغزل وليس كذلك لانك تجد الشعراء فى الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم والمصراع الثانى منقطع عن الاول لا يلائمه ولا يوافقه وهذا يبين لك اذا اعترضت معه البيت الذى تقدمه وكيف ينكر عليها تدللها والمتغزل يطرب على دلال الحبيب وتدلله والبيت الثانى قد عيب عليه لانه قد أخبر ان من سبيلها ان لا تغتر بما يريها من ان حبها يقتله وأنها تملك قلبه فما أمرته فعله والمحب اذا أخبر عن مثل هذا صدق وان كان المعنى غير هذا الذى عيب عليه وانما ذهب مذهبا آخر وهو انه أراد ان يظهر التجلد فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الابيات من الحب والبكاء على الاحبة فقد دخل فى وجه آخر من المناقضة والاحالة فى الكلام ثم قوله تأمرى القلب يفعل معناه تأمرينى والقلب لا يؤمر والاستعارة فى ذلك غير واقعة ولا حسنة وقوله

فان كنت قد ساءتك منى خليقة * فسلى ثيابى عن ثيابك تنسل

وما ذرفت عيناك الا لتضربى * بسهميك فى أعشار قلب مقتل

البيت الاول قد قيل فى تأويله انه ذكر الثوب وأراد البدن مثل قول الله تعالى وثيابك فطهر وقال أبو عبيدة هذا مثل للهجر وتنسل تبين وهو بيت قليل المعنى ركيكه وضيعه وكل ما أضافه الى نفسه ووصف به نفسه سقوط وسفه وضعف يوجب قطعه فلم يحكم على نفسه بذلك ولكن يورده مورد أن ليست له خليقة توجب هجرانه والتقصى من وصاله وانه مهذب الاخلاق شريف الشمائل فذلك يوجب ان لا ينفك من وصاله والاستعارة فى المصراع الثانى فيها تواضع وتقارب وان كانت غريبة وأما البيت الثانى فمعدود من محاسن القصيدة وبدائعها ومعناه ما بكيت الا لتجرحى قلبا معشرا أى مكسرا من قولهم

رمة اعشار اذا كانت قطعا هذا تأويل ذكره الاصمعي رضي الله عنه وهو أشبه عند أكثرهم وقال غيره وهذا مثل للاعشار التي تقسم الجزور عليها ويعني بسهميك المعلى وله سبعة انصباء والرقيب وله ثلاثة أنصباء فأراد انك ذهبت بقلبي أجمع ويعني بقوله مقتل مذلل وأنت تعلم انه على مايعني به فهو غير موافق للابيات المتقدمة لما فيها من التناقض الذي بيناه ويشبه ان يكون من قال بالتأويل الثاني فزع اليه لانه رأى اللفظ مستكرها على المعنى الاول لان القائل اذا قال ضرب فلان بسهمه في الهدف بمعنى أصابه كان كلاما ساقطا مرذولا وهو يرى ان معنى الكلمة ان عينها كالسهمين النافذين في اصابة قلبه المجروح فلما بكا وذرفتا بالدموع كانتا ضاربتين في قلبه ولكن من حمل على التأويل الثاني سلم من الخلل الواقع في اللفظ ولكنه اذا حمل على الثاني فسد المعنى واختل لانه ان كان محتاجا على ماوصف به نفسه من الصبابة فقلبه كله لها فكيف يكون بكاؤها هو الذي يخلص قلبه لها واعلم بعد هذا ان البيت غير ملائم للبيت الاول ولا متصل به في المعنى وهو منقطع عنه لانه لم يسبق كلام يقتضي بكاءها ولا سبب يوجب ذلك فتركيبه هذا الكلام على ماقبله فيه اختلال ثم لو سلم له بيت من عشرين بيتا وكان بديعا ولا عيب فيه فليس بعجيب لانه لا يدعى على مثله ان كلامه كله متناقض ونظمه كله متباين وانما يكفي ان نبين ان ماسبق من كلامه الى هذا البيت مما لا يمكن ان يقال انه يتقدم فيه أحدا من المتأخرين فضلا عن المتقدمين وانما قدم في شعره لابيات قد برع فيها وبان حذقه بها وانما أنكرنا ان يكون شعره متناسبا في الجودة ومتشابها في صحة المعنى واللفظ وقلنا انه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر وعربية كالمهل مستنكرة وبين كلام سليم متوسط وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى وبين حكمة حسنة وبين سخف مستشنع ولهذا قال الله عز اسمه ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فأما قوله

وبيضة خدر لايرام خباؤها ★ تمتعت من لهو بها غير معجل

تجاوزت احراسا اليها ومعشرا ★ على حراصا لو يسرون مقتلي

فقد قالوا عني بذلك انها كبيضة خدر في صفائها ورقتها وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق اليها بل هي دائرة في أفواه العرب وتشبيه سائر ويعني بقوله غير معجل انه ليس ذلك مما يتفق قليلا وأحيانا بل يتكرر له الاستمتاع بها وقد يحمله غيره على انه رابط الجاش فلا يستعجل اذا دخلها خوف حصانتها ومنعتها وليس في البيت كبير فائدة لانه الذي حكى في سائر أبياته فلا تتضمن مطاولته في المغازلة واشتغاله بها فتكريره في هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى الا الزيادة التي ذكر من منعتها وهو مع ذلك بيت سليم اللفظ في المصراع الاول دون الثاني

والبيت الثانى ضعيف وقوله لو يسرون مقتلى أراد ان يقول لو أسروا فاذا نقله الى هذا ضعف ووقع فى مضمار الضرورة والاختلال على نظمه بين حتى ان المحترز يحترز من مثله

وقوله اذا ما الثريا فى السماء تعرضت * تعرض أثناء الوشاح المفصل

قد أنكر عليه قوم قوله اذا ما الثريا فى السماء تعرضت وقالوا الثريا لا تتعرض حتى قال بعضهم سمى الثريا وانما أراد الجوزاء لانها تعرض والعرب تفعل ذلك كما قال زهير كأحمر عاد وانما هو أحمر ثمود وقال بعضهم فى تصحيح قوله تعرض أول ما تطلع كما ان الوشاح اذا طرح يلقاك بعرضه وهو ناحيته وهذا كقول الشاعر

تعرضت لى بمجان خل * تعرض المهرة فى الطول

يقول تريك عرضها وهى فى الرسن وقال أبو عمرو يعنى اذا أخذت الثريا فى وسط السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأة والاشبه عندنا ان البيت غير معيب من حيث عابوه به وانه من محاسن هذه القصيدة ولولا أبيات عدة فيه لقابله ما شئت من شعر غيره ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو ويستولى على الامد أنت تعلم انه ليس للمتقدمين ولا للمتأخرين فى وصف شئ من النجوم مثل ما فى وصف الثريا وكل قد أبدع فيه وأحسن فاما ان يكون قد عارضه أو زاد عليه فمن ذلك قول ذى الرمة

وردت اعتسافا والثريا كأنها * على قمة الرأس ابن ماء محلق

ومن ذلك قول ابن المعتز

وترى الثريا فى السماء كأنها * بيضات ادحى يلحن بفدفد

وكقوله كأن الثريا فى أواخر ليلها * تفتح نور أو لجام مفضض

وقوله أيضا فناولتها والثريا كأنها * جنى نرجس حيا الندامى به الساقى

وقول الاشهب بن رميلة

ولاحت لساريها الثريا كأنها * لدى الافق الغربى قرط مسلسل

ولابن المعتز

وقد هوى النجم والجوزاء تتبعه * كذات قرط أرادته وقد سقطا

أخذه من ابن الرومى فى قوله

طيب ريقه اذا ذقت فاه * والثريا بجانب الغرب قرط

ولابن المعتز قد سقانى المدام والصبـ * ـح بالليـــــل مؤتزر

والثريا كنور غصن * على الارض قد نثر

وقوله ونر وم الثريا فى السماء مراما * كانكباب طمر كاد يلقى لجاما

ولابن الطثرية اذا ما الثريا فى السماء كأنها * جمان وهى من سلكه فتبددا

ولو نسخت لك كل ما قالوا من البديع فى وصف الثريا الطال عليك الكتاب وخرج عن الغرض وانما نريد ان نبين لك ان الابداع فى نحو هذا أمر قريب وليس فيه شئ غريب وفى جملة مانقلناه مايزيد على تشبيهه فى الحسن أو يساويه أو يقاربه فقد علمت ان ما حلق فيه وقدر المتعصب له انه بلغ النهاية فيه أمر مشترك وشريعة مورودة وباب واسع وطريق مسلوك واذا كان هذا بيت القصيدة ودرة القلادة وواسطة العقد وهذا محله فكيف بما تعداه ثم فيه ضرب من التكلف لانه قال اذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض اثناء الوشاح فقوله تعرضت من الكلام الذى يستغنى عنه لانه يشبه اثناء الوشاح سواء كان فى وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب فالتهويل بالتعرض والتطويل بهذه الالفاظ لا معنى له وفيه ان الثريا كقطعة من الوشاح المفصل فلا معنى لقوله تعرض اثناء الوشاح وانما أراد ان يقول تعرض قطعة من اثناء الوشاح فلم يستقم له اللفظ حتى شبه ما هو كالشئ الواحد بالجمع وقوله

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها * لدى الستر الا لبسة المتفضل

فقالت يمين الله مالك حيلة * وما ان أرى عنك الغماية تنجلى

أنظر الى البيت الاول والابيات التى قبله كيف خلط فى النظم وفرط فى التأليف فذكر التمتع بها وذكر الوقت والحال والحراس ثم يذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها ووصل اليها من نزعها ثيابها الا ثوبا واحدا والمتفضل الذى فى ثوب واحد وهو الفضل فما كان من سبيله ان يقدمه انما ذكره مؤخرا وقوله لدى الستر حشو وليس بحسن ولا بديع وليس فى البيت حسن ولا شئ يفضل لاجله وأما البيت الثانى ففيه تعليق واختلال ذكر الاصمعى ان معنى قوله مالك حيلة أى ليست لك جهة تجئ فيها والناس حوالى والكلام فى المصراع الثانى منقطع عن الاول ونظمه اليه فيه ضرب من التفاوت وقوله

فقمت بها أمشى تجر وراءنا * على اثرنا أذيال مرط مرجل

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى * بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل

البيت الاول من مساعدتها اياه حتى قامت معه ليخلوا وانما كانت تجر على الاثر أذيال مرط مرجل والمرجل ضرب من البرود يقال لوشيه الترجيل وفيه تكلف لانه قال وراءنا على اثرنا ولو قال على اثرنا كان كافيا والذيل انما يجر وراء الماشى فلا فائدة لذكره وراءنا وتقدير القول فقمت أمشى بها وهذا أيضا ضرب من التكلف وقوله أذيال مرط كان من سبيله ان يقول ذيل مرط على انه لو سلم من ذلك كان قريبا ليس مما يفوت بمثله غيره ولا يتقدم به سواه وقول ابن المعتز أحسن منه

فبت أفرش خدى فى الطريق له * ذلا وأسحب أذيالى على الأثر

وأما البيت الثانى فقوله أجزنا يعنى قطعنا والخبت بطن من الارض والحقف رمل منعرج والعقنقل المنعقد من الرمل الداخل بعضه فى بعض وهذا بيت متقارب مع الابيات المتقدمة لان فيها ما هو سلس قريب يشبه كلام المولدين وكلام البذلة وهذا قد اغرب فيه وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة وليس فى ذكرها والتفضيل بالحاقها بكلامها فائدة والكلام الغريب واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام قد تحمد اذا وقعت موقع الحاجة فى وصف مايلائمها كقوله عزوجل فى وصف يوم القيامة يوما عبوسا قمطريرا فأما اذا وقعت فى غير هذا الموقع فهى مكروهة مذمومة بحسب ماتحمد فى موضعها وروى ان جريرا أنشد بعض خلفاء بنى أمية قصيدته

بان الخليط برامتين فودعوا * أوكلما جدوا لبين تجزع

كيف العزاء ولم أجد مذ بنتم * قلبا يقر ولا شرابا ينقع

قال وكان يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله

وتقول بوزع قد دببت على العصا * هلا هزئت بغيرنا يابوزع

فقال أفسدت شعرك بهذا الاسم وأما قوله

هصرت بغصنى دوحة فتمايلت * على هضيم الكشح ريا المخلخل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة * ترائبها مصقولة كالسجنجل

فمعنى قوله هصرت جذبت وثنيت وقوله بغصنى دوحة تعسف ولم يكن من سبيله ان يجعلهما اثنين والمصراع الثانى أصح وليس فيه شئ الا مايتكرر على ألسنة الناس من هاتين الصفتين وأنت تجد ذلك فى وصف كل شاعر ولكنه مع تكرره على الالسن صالح وأما معنى قوله مهفهفة انها مخففة ليست مثقلة والمفاضة التى اضطرب طولها والبيت مع مخالفته فى الطبع الابيات المتقدمة ونزوعه فيه الى الالفاظ المستكرهة ومافيه من الخلل من تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض فليس بطائل ولكنه قريب متوسط

وقوله تصد وتبدى عن أسيل وتتقى * بناظرة من وحش وجرة مطفل

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش * اذا هى نصته ولا بمعطل

معنى قوله عن أسيل أى بأسيل وانما يريد خدا ليس بكز وقوله تتقى يقال اتقاه بترسه أى جعله بينه وبينه وقوله تصد وتبدى عن أسيل متفاوت لان الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد وقوله تتقى بناظرة لفظة مليحة ولكن أضافها الى مانظم به كلامه وهو مختل وهو قوله من وحش وجرة وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا كان من سبيله أن يضيف

الى عيون الظباء أو المها دون اطلاق الوحش ففيهن ماتستنكر عيونها وقوله مطفل فسروه على انها ليست بصبية وانها قد استحكمت وهذا اعتذار متعسف وقوله مطفل زيادة لافائدة فيها على هذا التفسير الذي ذكره الاصمعي ولكن قد يحتمل عندي ان يفيد غير هذه الفائدة فيقال انها اذا كانت مطفلا لحظت اطفالها بعين رقة ففي نظرها هذه رقة نظر المودة ويقع الكلام معلقا تعليقا متوسطا وأما البيت الثاني فعنى قوله ليس بفاحش أي ليس بفاحش الطول ومعنى قوله نصته رفعته ومعنى قوله ليس بفاحش في مدح الاعناق كلام فاحش موضوع منه واذا نظرت في أشعار العرب رأيت في وصف الاعناق مايشبه السحر فكيف وقع على هذه الكلمة ودفع الى هذه اللفظة وهلا قال كقول أبي نواس

مثل الظباء سمت الى رو * ض صوادر عن غدير

ولست أطول عليك فتستثقل ولا أكثر القول في ذمه فتستوحش وأكلك الآن الى جملة من القول فان كنت من أهل الصنعة فطنت واكتفيت وعرفت مارمينا اليه واستغنيت وان كنت عن الطبقة خارجا وعن الاتقان بهذا الشأن خاليا فلا يكفيك البيان وان استقرينا جميع شعره وتتبعنا عامة ألفاظه ودللنا على مافي كل حرف منه * اعلم أن هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة وأبيات متوسطة وأبيات ضعيفة مرذولة وأبيات وحشية غامضة مستكرهة وأبيات معدودة بديعة وقد دللنا على المبتذل منها ولا يشتبه عليك الوحشي المستنكر الذي يروع السمع ويهول القلب ويكد اللسان ويعبس معناه في وجه كل خاطر ويكفهر مطلعه على كل متأمل أو ناظر ولا يقع مثله التمدح والتفاصح وهو مجانب لما وضع له أصل الافهام ومخالف لما بنى عليه التفاهم بالكلام فيجب ان يسقط عن الغرض المقصود ويلحق باللغز والاشارات المستبهمة فأما الذي زعموا انه من بديع هذا الشعر فهو قوله ويضحى فتيت المسك فوق فراشها * نؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل

والمصراع الاخير عندهم بديع ومعنى ذلك انها مترفة متنعمة لها من يكفيها ومعنى قوله لم تنتطق عن تفضل يقول لم تنتطق وهي فضل وعن هي بمعنى بعد قال أبو عبيدة لم تنتطق فتعمل ولكنها تتفضل ومما يعدونه من محاسنها

وليل كموج البحر أرخى سدوله * على بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه * وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي * بصبح وما الاصباح منك بأمثل

وكان بعضهم يعارض هذا بقول النابغة

كليني لهم يا أميمة ناصب * وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وصدر أراح الليل عازب همه ❁ تضاعف فيه الحزن من كل جانب
تقاعس حتى قلت ليس بمنقض ✶ وليس الذى يتلو النجوم بآيب

وقد جرى ذلك بين يدى بعض الخلفاء فقدمت أبيات امرئ القيس واستحسن استعارتها وقد جعل لليل صدرا يثقل تنحيه و يبطئ تقضيه وجعل له أردافا كثيرة وجعل له صلبا يمتد ويتطاول ورأوا هذا بخلاف ما يستعيره أبو تمام من الاستعارات الوحشية البعيدة المستنكرة ورأوا ان الالفاظ جميلة واعلم ان هذا صالح جميل وليس من الباب الذى يقال انه متناه عجيب وفيه المام بالتكلف ودخول فى التعمل وقد خرجوا له فى البديع من القصيدة قوله وقد اغتدى والطير فى وكناتها ❁ بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا ❁ كجلمود صخر حطه السيل من عل
وقوله أيضا له أيطلا ظبى وساقا نعامة ✶ وارخاء سرحان وتقريب تتفل

فأما قوله قيد الاوابد فهو مليح ومثله فى كلام الشعراء وأهل الفصاحة كثير والتعمل بمثله ممكن وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا تصنيفا ويؤلفون المحاسن تأليفا ثم يوشحون به كلامهم والذين كانوا من قبل لغزارتهم وتمكنهم لم يكونوا يتصنعون لذلك انما كان يتفق لهم اتفاقا ويطرد فى كلامهم اطرادا وأما قوله فى وصفه مكر مفر فقد جمع فيه طباقا وتشبيها وفى سرعة جرى الفرس للشعراء ماهو أحسن من هذا وألطف وكذلك فى جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه فى بيت واحد صنعة ولكن قد عورض فيه وزوحم والتوصل اليه يسير وتطلبه سهل قريب وقد بينا لك ان هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بينا فى الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه وله شركاء فى نظائرها ومنازعون فى محاسنه ومعارضون فى بدائعها ولاسواء كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة ويتلون تلون الحرباء ويختلف اختلاف الاهواء ويكثر فى تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه وبين قول يجرى فى سبكه على نظام وفى رصفه على منهاج وفى وضعه على حد وفى صفائه على باب وفى بهجته ورونقه على طريق مختلفة مؤتلف ومؤتلفة متحد ومتباعدة متقارب وشاردة مطيع ومطيعة وهو على متصرفاته واحد لا يستصعب فى حال ولا يتعقد فى شأن وكنا أردنا ان نتصرف فى قصائد مشهورة فنتكلم عليها وندل على معانيها ومحاسنها ونذكر لك من فضائلها ونقائصها ونبسط لك القول فى هذا الجنس ونفتح عليك فى هذا النهج ثم رأينا هذا خارجا عن غرض كتابنا والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعياره ووزنه بميزانه ومعياره ولذلك كتب وان لم تكن مستوفاة وتصانيف وان لم تكن مستقصاة وهذا

القدر يكفي في كتابنا ولم نحب ان ننسخ لك ما سطره الادباء في خطأ امرئ القيس في العروض والنحو والمعاني وما عابوه عليه في أشعاره وتكلموا به على ديوانه لان ذلك أيضا خارج عن غرض كتابنا ومجانب لمقصوده وانما أردنا ان نبين الجملة التي بيناها لتعرف ان طريقة الشعر شريعة مورودة ومنزلة مشهودة يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم وأنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبر عليه فيه وتجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم وتجد معنى قد توافدا عليه وتوافيا اليه فهما فيه شريكا عنان وكأنهما فيه رضيعا لبان والله يؤتي فضله من يشاء * فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فان العقول تتيه في جهته وتحار في بحره وتضل دون وصفه ونحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض وتستولي به على الأمد وتصل به الى المقصد وتتصور اعجازه كما تتصور الشمس وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر وأقرب عليك الغامض وأسهل لك العسير واعلم ان هذا علم شريف المحل عظيم المكان قليل الطلاب ضعيف الاصحاب ليست له عشيرة تحميه ولا أهل عصمة تفطن لما فيه وهو أدق من السحر وأهول من البحر وأعجب من الشعر وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب ان وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام الا ان يكون شعرا أو سجعا وليس كذلك فان احدى اللفظتين قد تنفر في موضع وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الاخرى بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها وتراها في مظانها وتجدها فيه غير منازعة الى أوطانها وتجد الاخرى لو وضعت موضعها في محل نفار ومرمى شراد ونابية عن استقرار ولا أكثر عليك المثال ولا أضرب لك فيه الامثال وأرجع بك الى ما وعدتك من الدلالة وضمنت لك من تقريب المقالة فان كنت لا تعرف الفصل الذي بينا بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام ومتصرفات مجاري النظام لم تستفد مما نقربه عليك شيأ وكان التقليد أولى بك والاتباع أوجب عليك ولكل شئ سبب ولكل علم طريق ولا سبيل الى الوصول الى الشئ من غير طريقه ولا بلوغ غايته من غير سبيله * خذ الآن هداك الله في تفريغ الفكر وتخلية البال وانظر فيما نعرض عليك ونهديه اليك متوكلا على الله ومعتصما به ومستعيذا به من الشيطان الرجيم حتى تقف على اعجاز القرآن العظيم سماه الله عز ذكره حكيما وعظيما ومجيدا وقال لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وقال لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون وقال ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا وقال قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا

وأخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزويني حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد بن عثمان حدثنا أبو يوسف الصيدلاني حدثنا محمد بن سلمة عن أبي سنان عن عمرو بن مرة عن أبي البختري الطائي عن الحارث الاعور عن علي رضي الله عنه قال قيل يا رسول الله ان امتك ستفتتن من بعدك فسأل أو سئل ما المخرج من ذلك فقال بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد من ابتغى العلم في غيره أضله الله ومن ولي هذا من جبار فحكم بغيره قصمه الله وهو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم فيه خبر من قبلكم وتبيان من بعدكم وهو فصل ليس بالهزل وهو الذي سمعته الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به لا يخلق على طول الرد ولا تنقضي عبره ولا تفنى عجائبه واخبرني أحمد بن علي بن الحسن أخبرنا أبي أخبرنا بشر بن عبد الوهاب أخبرنا هشام بن عبيد الله حدثنا المسيب بن شريك عن عبيدة عن أسامة بن أبي عطاء قال أرسل النبي صلى الله عليه وسلم الى علي رضي الله عنه في ليلة فذكر نحو ذلك في المعنى وفي بعض ألفاظه اختلاف وأخبرنا أحمد بن علي بن الحسن أخبرنا أبي أخبرنا بشر بن عبد الوهاب أخبرنا هشام ابن عبيد الله حدثنا المسيب بن شريك عن بشر بن غير عن القاسم عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوة ومن قرأ نصف القرآن أعطى نصف النبوة ومن قرأ القرآن كله أعطى النبوة كلها غير انه لا يوحى اليه وذكر الحديث ولو لم يكن من عظم شأنه الا انه طبق الارض أنواره وجلل الآفاق ضياؤه ونفذ في العالم حكمه وقبل في الدنيا رسمه وطمس ظلام الكفر بعد ان كان مضروب الرواق ممدود الاطناب مبسوط الباع مرفوع العماد ليس على الارض من يعرف الله حق معرفته أو يعبده حق عبادته أو يدين بعظمته أو يعلم علو جلالته أو يتفكر في حكمته فكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره من انه نور فقال وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم فانظر ان شئت الى شريف هذا النظم وبديع هذا التأليف وعظيم هذا الوصف كل كلمة من هذه الآية تامة وكل لفظ بديع واقع قوله وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا يدل على صدوره من الربوبية ويبين عن وروده عن الالهية وهذه الكلمة بمفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه وكان واسطة عقده وفاتحة عقده وغرة شهره وعين دهره وكذلك قوله ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا فجعله روحا لانه يحيي الخلق فله فضل الارواح في الاجساد وجعله نورا لانه يضيء ضياء الشمس في الآفاق ثم أضاف وقوع الهداية به الى مشيئته

ووقف وقوف الاسترشاد به على ارادته وبين انه لم يكن ليهتدى اليه لولا توفيقه ولم يكن ليعلم مافى الكتاب ولا الايمان لولا تعليمه وانه لم يكن ليهتدى فكيف كان يهدى لولاه فقد صار يهدى ولم يكن من قبل ذلك ليهتدى فقال وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الارض ألا الى الله تصير الامور فانظر الى هذه الكلمات الثلاث فالكلمتان الاوليان مؤتلفتان وقوله ألا الى الله تصير الامور كلمة منفصلة مباينة للاولى قد صيرهما شريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤالف وألطف انتظاما من الحديث الملائم وبهذا يبين فضل الكلام وتظهر فصاحته وبلاغته والامر أظهر والحمد لله والحال أبين من ان يحتاج الى كشف تأمل قوله فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم انظر الى هذه الكلمات الاربع التى ألف بينها واحتج بها على ظهور قدرته ونفاذ أمره أليس كل كلمة منها فى نفسها غرة وبمنفردها درة وهو مع ذلك يبين انه يصدر عن علو الامر ونفاذ القهر ويتجلى فى بهجة القدرة ويتحلى بخالصة العزة ويجمع السلاسة الى الرصانة والسلامة الى المتانة والرونق الصافى والبهاء الضافى ولست أقول انه شمل الاطباق المليح والايجاز اللطيف والتعديل والتمثيل والتقريب والتشكيل وان كان قد جمع ذلك وأكثر منه لان العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح ان تكون عين رسالة أو خطبة أو وجه قصيدة أو فقرة فاذا ألفت ازدادت حسنا وزادتك اذا تأملت معرفة وايمانا ثم تأمل قوله وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم هل تجد كل لفظة وهل تعلم كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البديع وتتضمن شرط القول البليغ فاذا كانت الآية تنتظم من البديع وتتألف من البلاغات فكيف لا تفوت حد المعهود ولا تحوز شأو المألوف وكيف لا تحوز قصب السبق ولا تتعالى عن كلام الخلق ثم اقصد الى سورة تامة فتصرف فى معرفة قصصها وراع ما فيها من براهينها وقصصها تأمل السورة التى يذكر فيها النمل وانظر فى كل كلمة كلمة وفصل وفصل بدأ بذكر السورة الى ان بين ان القرآن من عنده فقال وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وانه رأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون وقال فى سورة طه فى هذه القصة لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى وفى موضع لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون قد تصرف فى وجوه وأتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ولهذا قال فليأتوا بحديث مثله ليكون أبلغ فى تعجيزهم وأظهر للحجة عليهم وكل كلمة من

هذه الكلمات وان أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها تامة في معناها ثم قال فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين فانظر الى ما أجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء وعظم شأن هذا الثناء وكيف انتظم مع الكلام الأول وكيف اتصل بتلك المقدمة وكيف وصل بها ما بعدها من الاخبار عن الربوبية وما دل به عليها من قلب العصا حية وجعلها دليلا يدله عليه ومعجزة تهديه اليه وانظر الى الكلمات المفردة القائمة بانفسها في الحسن وفيما تضمنه من المعاني الشريفة ثم ما شفع به هذه الآية وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية وفي الدلالة آية فكيف اذا قارنتها اخواتها وضامتها ذواتها تجري في الحسن مجراها وتأخذ في معناها ثم من قصة الى قصة ومن باب الى باب من غير خلل يقع في نظم الفصل الى الفصل وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع التأليف وبليغ التنزيل وان أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبين وتتحقق بما ادعيناه زيادة تحقق فان كنت من أهل الصنعة فاعمد الى قصة من هذه القصص وحديث من هذه الأحاديث فعبر عنه بعبارة من جهتك واخبر عنه بألفاظ من عندك حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر وتتبين في نظم القرآن الدليل الباهر ولذلك أعاد قصة موسى في سور وعلى طرق شتى وفواصل مختلفة مع اتفاق المعنى فلعلك ترجع الى عقلك وتستر ما عندك ان غلطت في أمرك أو ذهبت في مذاهب وهمك أو سلطت على نفسك وجه ظنك متى تهيأ للبليغ ان يتصرف في قدر آية في أشياء مختلفة فيجعلها مؤتلفة من غير ان يبين على كلامه اعباء الخروج والتنقل أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتعمل واحسب أنه يسلم من هذا ومحال أن يسلم منه حتى يظفر بمثل تلك الكلمات الأفراد والألفاظ الاعلام حتى يجمع بينها فيجلو فيها فقرة من كلامه وقطعة من قوله ولو اتفق له في أحرف معدودة وأسطر قليلة فتى يتفق له في قدر ما نقول انه من القرآن معجز هيهات هيهات ان الصبح يطمس النجوم وان كانت زاهره والبحر يغمر الانهار وان كانت زاخره متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية "ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين" والخلوص من ذلك الى ما صارت اليه من التدبير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها أمر المستشار ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون وذكر قولهم قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظري

ماذا تأمرين لا تجد فى صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به وقوله الامر اليك تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع اتفاقه فى هذا الكلام وتمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله فانظرى ماذا تأمرين ثم الى هذا الاختصار والى البيان مع الايجاز فان الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والايجاز وهذا مما يزيده الاختصار بسطا لتمكنه ووقوعه موقعه ويتضمن الايجاز منه تصرفا يتجاوز محله وموضعه وكم جئت الى كلام مبسوط يضيق عن الافهام ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام ثم لو وقع على الافهام (٣) فما يجب فيه من شروط الاحكام أو بمعانى القصة وما تقتضى من الاعظام ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصا فى وجه الحكمة أو مدخولا فى باب السياسة أو مصفوفا فى طريق السيادة أو مشترك العبارات ان كان مستجود المعنى أو جيد البلاغة مستجلب المعنى أو مستجلب البلاغة جيد المعنى أو مستنكر اللفظ وحشى العبارة أو مستبهم الجانب مستكره الوضع وأنت لا تجد فى جميع ما تلونا عليك الا ما اذا بسط أفاد واذا اختصر كمل فى بابه وجاد واذا سرح الحكيم فى جوانبه طرف خاطره وبعث العليم فى أطرافه عيون مباحثه لم يقع الا على محاسن تتوالى وبدائع تترى ثم فكر بعد ذلك فى آية آية أو كلمة كلمة فى قوله ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم فى علوه ونوره وكالياقوت يتلألأ بين شذوره ثم تأمل تمكن الفاصلة وهى الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها وان شرحت لك ما فى كل آية طال عليك الامر ولكنى قد بينت بما فسرت وقررت بما فصلت الوجه الذى سلكت والنحو الذى قصدت والغرض الذى اليه رميت والسمت الذى اليه دعوت ثم فكر بعد ذلك فى شئ أدلك عليه وهو تعادل هذا النظم فى الاعجاز فى مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة فأجل الرأى فى سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة وتدبر الخواتم والفواتح والبوادئ والمقاطع ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول ثم اقض ما أنت قاض وان طال عليك تأمل الجميع فاقتصر على سورة واحدة أو على بعض سور ما رأيك فى قوله ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضياؤها على ما ترى وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ورونقها على ما تعاين وفصاحتها على ما تعرف وهى تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير ذكر العلو فى الارض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبى النساء واذا تحكم فى هذين الامرين فما ظنك بما دونهما لان النفوس لا تطمئن على هذا الظلم والقلوب لا تقر على هذا الجور ثم ذكر الفاصلة التى أوغلت فى التأكيد

(٣) هكذا بالاصل

وكفت فى التظليم وردت آخر الكلام على أوله وعطفت عجزه على صدره ثم ذكر وعده
تخليصهم بقوله ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم
الوارثين وهذا من التأليف بين المؤتلف والجمع بين المستأنس كما أن قوله وابتغ فيما آتاك
الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى
الارض ان الله لا يحب المفسدين وهى خمس كلمات متباعدة فى المواقع نائية المطارح قد
جعلها النظم البديع أشد تألفا من الشئ المؤتلف فى الأصل وأحسن توافقا من المتطابق
فى أول الوضع ومثل هذه الآية قوله وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان
الله وتعالى عما يشركون ومثلها وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن
من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين ومن المؤتلف قوله فخسفنا به وبداره الأرض فما
كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وهذه ثلاث كلمات كل كلمة منها
أعز من الكبريت الأحمر ومن الباب الآخر قوله تعالى ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا
هو كل شئ هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون كل سورة من هذه السور تتضمن من
القصص مالو تكلفت العبارة عنها باضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته ثم تجد فيما تنظم ثقل
النظم ونفور الطبع وشراد الكلام وتهافت القول وتمنع جانبه وقصورك فى الايضاح عن
واجبه ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة الى قصة وفصل الى فصل حتى تبين عليك مواضع
الوصل ويستصعب عليك أماكن الفصل ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة
وأمثالا سائرة وحكما جليلة وأدلة على التوحيد بينة وكلمات فى التنزيه والتحميد شريفة وان
أردت أن تحقق ماوصفت لك فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين هل تجد كلامه فى
المديح والغزل والفخر والهجو يجرى مجرى كلامه فى ذكر القصص انك لتراه اذا جاء الى
وصف واقعة أو نقل خبر عامى الكلام سوقى الخطاب مسترسلا فى أمره متساهلا فى كلامه
عادلا عن المألوف من طبعه ونا كبا عن المعهود من سجيته فان اتفق له فى قصة كلام جيد كان
قدر بيتين أو ثلاثة وكان مازاد عليها حشوا وماتجاوزها لغوا ولا أقول انها تخرج من
عادته عفوا لانه يقصر عن العفو ويقف دون العرف ويتعرض للركاكة فان لم تقنع عاقلت
لك من الابيات فتأمل غير ذلك من السور هل تجد الجميع على ماوصفت لك لو لم تكن الا سورة
واحدة لكفت فى الاعجاز فكيف بالقرآن العظيم ولو لم يكن الا حديث من سورة لكفى
وأقنع وشفى ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء لما طلبت بينة سواها
بل قصة من قصصه وهى قوله وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون الى قوله
فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى اسرائيل

فأتبعوهم مشرقين حتى قال فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ثم قصة ابراهيم عليه السلام ثم لو لم تكن الا الآيات التي انتهى اليها القول فى ذكر القرآن وهى قوله وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وهذه كلمات مفردة بفواصلها منها ما يتضمن فاتحة وفاصلة ومنها ماهى فاتحة وواسطة وفاصلة ومنها كلمة بفاصلتها تامة دل على أنه نزله على قلبه ليكون نذيرا وبين أنه آية لكونه نبيا ثم وصل بذلك كيفية النذارة فقال وانذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فتأمل آية آية لتعرف الاعجاز وتتبين التصرف البديع والتنقل فى الفصول الى آخر السورة ثم راع المقطع العجيب وهو قوله وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون هل يحسن أن تأتى بمثل هذا الوعيد وان تنظم مثل هذا النظم وان تجد مثل هذه النظائر السابقة وتصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة ولولا كراهة الاملال لجئت الى كل فصل فاستقريت على الترتيب كلماته وبينت لك ما فى كل واحدة منها من البراعة ومن عجيب البلاغة ولعلك تستدل بما قلنا على ما بعده وتستضيء بنوره وتهتدى بهداه ونحن نذكر آيات أخر لتزداد استبصارا وتتقدم تيقنا تأمل من الكلام المؤتلف قوله حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير أنت قد تدربت الآن بحفظ أسماء الله تعالى وصفاته فانظر متى وجدت فى كلام البشر وخطبهم مثل هذا النظم فى هذا القدر وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعانى وحسن الفاتحة والخاتمة واتل ما بعدها من الآى واعرف وجه الخلوص من شئ الى شئ من احتجاج الى وعيد ومن اعذار الى انذار ومن فنون من الامر شتى مختلفة تأتلف بشريف النظم ومتباعدة تتقارب بعلى الضم ثم جاء الى قوله كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا انهم أصحاب النار الآية الأولى أربعة فصول والثانية فصلان وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وهل تقع فى الحسن موقع قوله ليأخذوه كلمة وهل تقوم مقامه فى الجزالة لفظة وهل يسد مسده فى الاصالة نكتة لو وضع موضع ذلك ليقتلوه أو ليرجموه أو لينفوه أو ليطردوه أو ليهلكوه أو ليذلوه ونحو هذا ما كان ذلك بعيدا ولا بارعا ولا عجيبا ولا بالغا فانقد موضع هذه الكلمة وتعلم بها ما تذهب اليه من تخير الكلام وجميل الالفاظ والاهتداء للمعانى فان كنت تقدر ان شيأ من هذه الكلمات التى عددناها عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا من هذا الكتاب فلا

سبيل لك الى الوقوف على تصاريف الخطاب فافزع الى التقليد واكف نفسك مؤنة التفكير وان فطنت فانظر الى ماقال من رد عجز الخطاب الى صدره بقوله فاخذتهم فكيف كان عقاب ثم ذكر عقيبها العذاب فى الآخرة واتلاها تلو العذاب فى الدنيا على الاحكام الذى رأيت ثم ذكر المؤمنين بالقرآن بعد ذكر المكذبين بالآيات والرسل فقال الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم و يؤمنون به الى أن ذكر ثلاث آيات وهذا كلام مفصول تعلم عجيب اتصاله بما سبق ومضى وانتسابه الى ماتقدم وتقضى وعظم موضعه فى معناه ورفيع مايتضمن من تحميدهم وتسبيحهم وحكاية كيفية دعاء الملائكة بقوله ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظا ومعنى ولطيف هذه الحكاية وتلاؤم هذا الكلام وتشاكل هذا النظام وكيف يهتدى الى وضع هذه المعانى بشرى والى تركيب مايلائمها من الألفاظ انسى ثم ذكر ثلاث آيات فى أمر الكافرين على ماترى ثم نبه على أمر القرآن وانه من آياته بقوله هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ومايتذكر الا من ينيب واعاد ذكر هذين الأمرين اللذين يختص بالقدرة عليهما لتناسبهما فى أنهما من تنزيله من السماء ولان الرزاق الذى لو لم يرزق لم يمكن بقاء النفس تجب طاعته والنظر فى آياته ثم قال فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على مايشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شئ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار قف على هذه الدلالة وفكر فيها و راجع نفسك فى مراعاة معانى هذه الصفات العالية والكلمات السامية والحكم البالغة والمعانى الشريفة تعلم ورودها عن الالهية ودلالتها على الربوبية وتحقق أن الخطب المنقولة عنهم والأخبار المأثورة فى كلماتهم الفصيحة من الكلام الذى تعلق به الهمم البشرية وماتحوم عليه الأفكار الآدمية وتعرف مباينتها لهذا الضرب من القول أى خاطر يتشوف الى أن يقول يلقى الروح من أمره على مايشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون وأى لفظ يدرك هذا المضمار وأى حكيم يهتدى الى مالهذا من الغور وأى فصيح يهتدى الى هذا النظم ثم استقرئ الآية الى آخرها واعتبر كلماتها وراع بعدها قوله اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم ان الله سريع الحساب من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث على قربها وعلى خفتها فى النظم وموقعها من القلب ثم تأمل قوله وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لايقضون بشئ ان الله هو السميع البصير كل كلمة من ذلك على ماقد وصفتها من أنه اذا رآها الانسان فى رسالة كانت عينها أو فى خطبة كانت وجهها أو قصيدة كانت غرة غرتها وبيت قصيدتها كالياقوتة التى تكون فريدة العقد وعين

القلادة ودرة الشذر اذا وقع بين كلام وشحه واذا ضمن فى نظام زينه واذا اعترض فى خطاب تميز عنه وبان بحسنه منه ولست أقول هذا لك فى آية دون آية وسورة دون سورة وفصل دون فصل وقصة دون قصة ومعنى دون معنى لانى قد شرحت لك ان الكلام فى حكاية القصص والاخبار وفى الشرائع والأحكام وفى الديانة والتوحيد وفى الحجج والتثبيت هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الأمور ألا ترى أن الشاعر المفلق اذا جاء الى الزهد قصر والأديب اذا تكلم فى بيان الأحكام وذكر الحلال والحرام لم يكن كلامه على حسب كلامه فى غيره ونظم القرآن لا يتفاوت فى شئ ولا يتباين فى أمر ولا يختل فى حال بل له المثل الأعلى والفضل الأسنى وفيما شرحناه لك كفاية وفيما بيناه بلاغ وتذكر فى الأحكاميات وغيرها آيات أخر منها قوله يسئلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما امسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ان الله سريع الحساب أنت تجد فى هذه الآية من الحكمة والتصرف العجيب والنظم البارع ما يدلك ان شئت على الاعجاز مع هذا الاختيار والايجاز فكيف اذا بلغ ذلك آيات وكانت سورة ونحو هذه الآية قوله الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذين يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون وكالآية التى بعدها فى التوحيد واثبات النبوة وكالآيات الثلاث فى المواريث أى بارع يقدر على جمع أحكام الفرائض فى قدرها من الكلام ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم وان جئت الى آيات الاحتجاج كقوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسئل عما يفعل وهم يسألون وكالآيات فى التوحيد كقوله هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين وكقوله تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا وكقوله تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير الى آخرها وكقوله والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ان الهكم لواحد رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب هذه من الآيات التى قال فيها الله تعالى ذكره الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم

تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد وانظر بعين عقلك وراجع جلية بصيرتك اذا تفكرت فى كلمة كلمة مما نقلناه اليك وعرضناه عليك ثم فيما ينتظم من الكلمات ثم الى أن يتكامل فصلا وقصة أو يتم حديثا وسورة لا بل فكر فى جميع القرآن على هذا الترتيب وتدبره على نحو هذا التنزيل فلم ندع ما ادعيناه لبعضه ولم نصف ما وصفناه الا فى كله وان كانت الدلالة فى البعض أبين وأظهر والآية أكشف وأبهر واذا تأملت على ماهديناك اليه ووقفناك عليه فانظر هل ترى وقع هذا النور فى قلبك واشتماله على لبك وسريانه فى حسك ونفوذه فى عروقك وامتلاءك به ايقانا واحاطة واهتداءك به ايمانا او بصيرة أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه والهزة تعمل فى جوانبك من لون والأريحية تستولى عليك من باب وهل تجد الطرب يستفزك للطيف ما فطنت له والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه وتجد فى نفسك من المعرفة التى حدثت لك عزة وفى أعطافك ارتياحا وهزة وترى لك فى الفضل تقدما وتبريزا وفى اليقين سبقا وتحقيقا وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة ومهاويهم فى ظلال القلة والذلة وأقدارهم بالعين التى يجب أن تلحظ بها مراتبهم بحيث يجب أن ترتبها هذا كله فى تأمل الكلام ونظامه وعجيب معانيه وأحكامه فان جئت الى ما انبسط فى العالم من بركته وأنواره وتمكن فى الافاق من يمنه وأضوائه وثبت فى القلوب من اكباره واعظامه وتقرر فى النفوس من حتم أمره ونهيه ومضى فى الدماء من مفروض حكمه والى أنه جعل عماد الصلاة التى هى تلو الايمان فى التأكيد وثانية التوحيد فى الوجوب وفرض حفظه ووكل الصغار والكبار بتلاوته وأمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظيمه من قوله فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم لم يؤمر بالتعوذ لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه فهل يدلك هذا على عظيم شأنه وراجح ميزانه وعالى مكانه وجملة الأمر أن نقد الكلام شديد وتمييزه صعب ❀ ومما كتب الى الحسن بن عبد الله العسكرى أخبرنى أبو بكر بن دريد قال سمعت أبا حاتم يقول سمعت الأصمعى يقول فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب وقال سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول العلماء بالشعر أعز من الكبريت الأحمر واذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس يشق تمييزه ويصعب نقده يذهب عن محاسنه الكثير وينظرون الى كثير من قبيحه بعين الحسن وكثير من حسنه بعين القبح ثم يختلفون فى الأحسن منه اختلافا كثيرا وتتباين آراؤهم فى تفضيل ما تفضل منه فكيف لا يتحيرون فيما لا يحيط به علمهم ولا يتأتى فى مقدورهم ولا يحل بخواطرهم وقد حير القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم ولا أتم بلاغة ولا أحسن براعة حتى دهشوا حين وردعليهم وولهت عقولهم ولم يكن

عندهم فيه جواب غير ضرب الأمثال والتعرض عليه والتوهم فيه وتقسيمه أقساما وجعله عضين وكيف لا يكون أحسن الكلام وقد قال الله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ومن يضلل الله فماله من هاد استغنم فهم هذه الآية وكفاك استفد علم هذه الكلمات وقد أغناك فليس يوقف على حسن الكلام بطوله ولا تعرف براعته بكثرة فصوله ان القليل يدل على الكثير والقريب قد يهجم بك على البعيد ثم انه سبحانه وتعالى لما علم من عظم شأن هذه المعرفة وكبر محلها وذهابها على أقوام ذكر فى آخر هذه الآية ماذكر وبين ما بين فقال ذلك هدى الله يهدى به من يشاء فلا يعلم ما وصفنا لك الا بهداية من العزيز الحميد وقال ومن يضلل الله فما له من هاد وقال يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وقد بسطنا لك القول رجاء افهامك وهذا المنهاج الذى رأيته ان سلكته يأخذ بيدك ويدلك على رشدك ويغنيك عن ذكر براعته آية آية لك واعلم أنا لم نقصد فيما سطرناه من الآيات وسميناه من السور والدلالات ذكر الأحسن والأكشف والأظهر لانا نعتقد فى كل سورة ذكرناها وأضربنا عن ذكرها اعتقادا واحدا فى الدلالة على الاعجاز والكفاية فى التمنع والبرهان ولكن لم يكن بد من ذكر بعض فذكرنا ما تيسر وقلنا فيما اتجه فى الحال وخطر وان كنا نعتقد ان الاعجاز فى بعض القرآن أظهر وفى بعض ادق وأغمض والكلام فى هذا الفصل يجىء بعد هذا فاحفظ عنا فى الجملة ما كررناه والسير بعد ذلك فى التفصيل اليك وحصل ما أعطيناك من العلامة ثم النظر عليك قد اعتمدنا على أن الآيات تنقسم الى قسمين أحدهما ما يتم بنفسه أو بنفسه وفاصلته فينير فى الكلام انارة النجم فى الظلام والثانى ما يشتمل على كلمتين أو كلمات اذا تأملتها وجدت كل كلمة منها فى نهاية البراعة وغاية البلاغة وانما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين أضعاف كلام كثير أو خطاب طويل فتراها ما بينها تدل على نفسها وتعلو على ما قد قرن منها لعلو جنسها فاذا ضمت الى أخواتها وجاءت فى ذواتها أرتك القلائد منظومة كما كانت تريك عند تأمل الافراد منها اليواقيت منثورة والجواهر مبثوثة ولولا ما أكره من تضمين القرآن فى الشعر لأنشدتك ألفاظا وقعت مضمنة لتعلم كيف تلوح عليه وكيف ترى بهجتها فى أثنائه وكيف تنماز منه حتى أنه لو تأمله من لم يقرأ القرآن لتبين أنه أجنبى من الكلام الذى تضمنه والباب الذى توسطه وأنكر مكانه واستكبر موضعه ثم تناسبها فى البلاغة والابداع وتماثلها فى السلاسة والاغراب ثم انفرادها بذلك الاسلوب وتخصصها بذلك الترتيب ثم سائر ما قدمنا ذكره مما نكره اعادته وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب فى مجاريه

و يختل تصرفه فى معانيه و يتفاوت التفاوت الكثير فى طرقه و يضيق به النطاق فى مذاهبه و يرتبك فى أطرافه و جوانبه و يسلمه للتكلف الوحش كثرة تصرفه و يحيله على التصنع الظاهر موارد تنقله و تخلصه ونظم القرآن فى مؤتلفه ومختلفه و فى فصله ووصله وافتتاحه واختتامه وفى كل نهج يسلكه وطريق يأخذ فيه و باب يتهجم عليه و وجه يؤمه على ما وصفه الله تعالى به لا يتفاوت كما قال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ولا يخرج عن تشابهه وتماثله كما قال قرآنا عربيا غير ذى عوج و كما قال كتابا متشابها ولا يخرج عن ابانته كما قال بلسان عربى مبين وغيره من الكلام كثير التلون دائم التغير يقف بك على بديع مستحسن و يعقبه قبيح مستهجن و يطلع عليك بوجه الحسناء ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوهاء و يأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التى هى كاللآلئ الزهر وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهم قد يقع اليك منه الكلام المثبج والنظم المشوش والحديث المشوه وقد تجد منه مالا يتناسب ولا يتشابه ولا يتألف ولا يتماثل وقد قيل فى وصف ما جرى هذا المجرى

وشعر كبعر الكبش فرق بينه * لسان دعى فى القريض دخيل

وقال آخر وبعض قريض القوم أولاد علة * يكد لسان الناطق المتحفظ

فان قال قائل فقد نجد فى آيات القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة وانما تكون البراعة عندك منه فى مقدار يزيد على الكلمات المفردة وحد يتجاوز حد الالفاظ المستبدة وان كان الأكثر على ما وصفته به قيل له نحن نعلم أن قوله حرمت عليكم أمهاتكم و بناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم الى آخر الآية ليس من القبيل الذى يمكن اظهار البراعة فيه وابانة الفصاحة وذلك يجرى عندنا مجرى ما يحتاج الى ذكره من الأسماء والألقاب فلا يمكن اظهار البلاغة فيه فطلبها فى نحو هذا ضرب من الجهالة بل الذى يعتبر فى نحو ذلك تنزيل الخطاب وظهور الحكمة فى الترتيب والمعنى وذلك حاصل فى هذه الآية ان تأملت ألا ترى انه بدأ بذكر الأم لعظم حرمتها وادلائها بنفسها ومكان بعضيتها فهى أصل لكل من يدلى بنفسه منهن لأنه ليس فى ذوات الأنساب أقرب منها ولما جاء الى ذوات الاسباب ألحق بها حكم الأم من الرضاع لأن اللحم ينشره اللبن بما يغذوه فيحصل بذلك أيضا لها حكم البعضية فنشر الحرمة بهذا المعنى وألحقها بالوالدة وذكر الأخوات من الرضاعة فنبه بها على كل من يدلى بغيرها وجعلها تالية للأم من الرضاع والكلام فى اظهار حكم هذه الآية وفوائدها يطول ولم نضع كتابنا لهذا وسبيل هذا ان نذكره فى كتاب معانى القرآن ان سهل الله لنا املاءه وجمعه فلم تنفك هذه الآية من

الحكم التى تخلف حكمة الاعجاز فى النظم والتأليف والفائدة التى تنوب مناب العدول عن البراعة فى وجه الترصيف فقد علم السائل أنه لم يأت بشئ ولم يهتد للاغراض فى دلالات الكلام وفوائده ومتصرفاته وفنونه ومتوجهاته وقد يتفق فى الشعر ذكر الاسامى فيحسن موقعه كقول أبى دواد الأسدى

ان يقتلوك فقد ثللت عروشهم * بعتيبة بن الحارث بن شهاب

بأشدهم كلبا على أعدائه * وأعزهم فقدا على الأصحاب

وقد يتفق ذكر الاسامى فيفسد النظم ويقبح الوزن والآيات الاحكاميات التى لا بد فيها من أمر البلاغة يعتبر فيها من الالفاظ ما يعتبر فى غيرها وقد يمكن فيها وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد فى القرآن فى بابه ما ليس عليه مزيد فى البلاغة وعجيب النظم ثم فى جملة الآيات ما ان لم تراع البديع البليغ فى الكلمات الافراد والالفاظ الآحاد فقد تجد ذلك مع تركب الكلمتين والثلاث ويطرد ذلك فى الابتداء والخروج والفواصل وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة أو باجتماع ذلك أو فى بعض ذلك ما يخلف الابداع فى افراد الكلمات وان كانت الجملة والمعظم على ما سبق الوصف فيه واذا عرف ما يجرى اليه الكلام وينهى اليه الخطاب ويقف عليه الأسلوب ويختص به القبيل بان عند أهل الصنعة تميز بابه وانفراد سبيله ولم يشك البليغ فى انتمائه الى الجهة التى ينتمى اليها ولم يرتب الاديب البارع فى انتسابه الى ما عرف من نهجه وهذا كما يعرف طريقة مترسل فى رسالته فهو لا يخفى عليه بناء قاعدته وأساسه فكأنه يرى أنه يعد عليه مجارى حركاته وأنفاسه وكذلك فى الشعر واختلاف ضروبه يعرف المتحقق به طبع كل أحد وسبيل كل شاعر وفى نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها وتقصيها يطول وعجائبها لا تنقضى فمنها الكلام (٣) والاشارات واذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغا ربما زاد الافهام به على الايضاح أوساوى مواقع التفسير والشرح مع استيفائه شروطه كأن النهاية فى معناه وذلك كقوله سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير فصول هذه الآية وكلماتها على ما شرحناه من قبل البلاغة واللطف فى التقدم وفى تضمن هذا الأمر العظيم والمقام الكريم ويتلو هذه قوله وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل هذا خروج لو كان فى غير هذا الكلام لتصور فى صورة المنقطع وقد تمثل فى هذا النظم لبراعته وعجيب أمره موقع ما لا ينفك منه القول وقد يتبرأ الكلام المتصل بعضه من بعض ويظهر عليه التثبيج والتباين للخلل الواقع فى النظم وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلا ولم يبن عليه تميز الخروج ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب الى ذكر

(٣) هنا بياض بالاصل

نوح وكيف أثنى عليه وكيف يليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها مع خروجها مخرج البر وزمن الكلام الأول الى ذكره واجرائه الى مدحه بشكره وكونهم من ذريته يوجب عليهم أن يسيروا بسيرته وأن يستنوا بسنته فى أن يشكروا كشكره ولا يتخذوا من دون الله وكيلا وان يعتقدوا تعظيم تخليصه اياهم من الطوفان لما حملهم عليه ونجاهم فيه حين أهلك من عداهم به وقد عرفهم أنه انما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيما سلط عليهم من قبلهم وعاقبهم ثم عاد عليهم بالافضال والاحسان حتى يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذى ولدهم وهم من ذريته فلما عادوا الى جهالتهم وتمردوا فى طغيانهم عاد عليهم بالتعذيب ثم ذكر الله عز وجل فى ثلاث آيات بعد ذلك معنى هذه القصة التى كانت لهم بكلمات قليلة فى العدد كثيرة الفوائد لا يمكن شرحها الا بالتفصيل الكثير والكلام الطويل ثم لم يخل تضاعيف الكلام مما ترى من الموعظة على أعجب تدريج وأبدع تاريخ بقوله ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها ولم ينقطع بذلك الكلام وأنت ترى الكلام يتبدد مع اتصاله وينتشر مع انتظامه فكيف بالقاء ماليس منه فى اثنائه وطرح مابعده فى ادراجه الى أن خرج الى قوله عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا يعنى ان عدتم الى الطاعة عدنا الى العفو ثم خرج خروجا آخر الى ذكر القرآن وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام وماله من علو الشان لا يطلب مطلبا الا انفتح ولا يسلك قلبا الا انشرح ولا يذهب مذهبا الا استنار وأضاء ولا يضرب مضربا الا بلغ فيه السماء لا تقع منه على فائدة فقدرت انها اقصى فوائدها الا قصرت ولا تظفر بحكمة فظننت انها زبدة حكمها الا وقد أخللت ان الذى عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضل من حمار أهله وأحمق من هنبقة لو كان شعره كله كالابيات المختارة التى قدمناها الا وجب البراءة من قوله

وسن كسنيق سناء وسنما * ذعرت بمدلاج الهجير نهوض

قال الاصمعى لا أدرى ما السن ولا السنيق ولا السنم وقال بعضهم السنيق أكمة وقال فيها

له قصر باعير وساقا نعامة * كفحل الهجان القيصرى العضوض

وقوله عصافير وذبان ودود * وأجرأ من مجلجلة الذباب

وزاد فى تقبيح ذلك وقوعه فى أبيات فيها

فقد طوفت فى الآفاق حتى * رضيت من الغنيمة بالاياب

وكل مكارم الاخلاق سارت * اليه همتى وبها اكتسابى

وكقوله فى قصيدة قالها فى نهاية السقوط

أزمان فوها كلما نبهتها * كالمسك فاح وظل فى الفدام

أفلا ترى أظعانهن بواكرا * كالنخل من شوكان حين صرام
وكأن شاربها أصاب لسانه * موم يخالط جسمه بقام

وكقوله
لم يفعلوا فعل آل حنظلة * انهم جير بئسما ائتمروا
لاحميرى وفى ولا عدس * ولا است عير يحكها الثفر
ان بنى عوف ابتنوا حسبا * ضيعه الداخلون اذ غدروا

وكقوله
أبلغ شهابا وأبلغ * هـل أتاك الخير مال
انا تركنا منكم قتلى * بخوعى وسبيا كالسعالى
يمشين بين رحالنا * معترفات بجوع وهزال

ولم يقع مثل ذلك له وحده فقد قال الأعشى

فأدخلك الله برد الجنان * جذلان فى مدخل طيب

وقال أيضا فرميت غفلة عينه عن شأنه * فأصبت حبة قلبها وطحالها

وقال فى فرسه

ويأمر لليحموم كل عشية * بقت وتعليق فقد كاد يسنق

وقال شاو مشل شلشل شول

وهذه الالفاظ فى معنى واحد وقد وقع لزهير نحوه كقوله

فأقسمت جهدا بالمنازل من منى * وماسفحت فيه المقادم والقمل

كيف يقال هذا فى قصيدة يقول فيها

وهل ينبت الخطى الاوشيجه * وتغرس الا فى منابتها النخل

وكقول الطرماح

سوف تدنيك من لميس سبنتاة * امارت بالبول ماء الكراض

السبنتاة الناقة الصلبة والكراض ماء الفحل اسالت ماء الفحل مع البول فلم تعقد عليه ولم تحمل فتضعف والمائر السائل فان قال قائل أجدك تحاملت على امرئ القيس و رأيت أن شعره يتفاوت بين اللين والشراسة و بين اللطف والشكاسة و بين التوحش والاستئناس والتقارب والتباعد و رأيت الكلام الاعدل أفضل والنظام المستوثق أكمل وأنت تجد البحترى يسبق فى هذا الميدان و يفوت الغاية فى هذا الشأن وأنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام و يقدمون رأيه فى البلاغة على كل رأى و كذلك تجد لأبى نواس من بهجة اللفظ ودقيق المعنى ما يتحير فيه أهل الفضل و يقدمه الشطار والظراف على كل شاعر و يرون لنظمه روعة لا يرون لنظم غيره و زبرجا لا يتفق لسواه فكيف يعرف فضل

ماسواه عليه فالجواب ان الكلام فى أن الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن قد تقدم واذ كنا قد بينا ان شعر امرئ القيس وهو كبيرهم الذى يقرون بتقدمه وشيخهم الذى يعترفون بفضله وقائدهم الذى يأتمون به وامامهم الذى يرجعون اليه كيف سبيله وكيف طريق منزلته عن منزلة نظم القرآن وانه لا يخلط بشعره غبار ذلك النظم وهو اذا لحظ ذلك كان كما قال

فأصبحت من ليلى الغداة كناظر * مع الصبح فى اعجاز نجم مغرب

وكما قال أيضا راحت مشرقة ورحت مغربا * فمتى التقاء مشرق ومغرب

واذا كنا قد أبنا فى القاعدة ما علمت وفصلنا لك فى شعره ما عرفت لم نحتج الى أن نتكلم على شعر شاعر وكلام كل بليغ والقليل يدل على الكثير وقد بينا فى الجملة مباينة أسلوب نظم القرآن جميع الاساليب ومزيته عليها فى النظم والترتيب وتقدمه عليها فى كل حكمة وبراعة ثم تكلمنا على التفضيل على ما شهدت ولا يبقى علينا بعد ذلك سؤال ثم نقول أنت تعلم ان من يقول بتقدم البحترى فى الصنعة به من الشغل فى تفضيله على ابن الرومى أو تسوية ما بينهما ما لا يطمع معه فى تقديمه على امرئ القيس ومن فى طبقته وكذلك أبو نواس انما يعدل شعره بشعر أشكاله ويقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره وانما يقع بينهم التباين اليسير والتفاوت القليل فاما ان يظن ظان أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق وانما هى خواطر يغير بعضها على بعض ويقتدى فيها بعض ببعض والغرض الذى يرمى اليه ويصح التوافى عليه فى الجملة فهو قبيل متداول وجنس متنازع وشريعة مورودة وطريقة مسلوكة ألا ترى الى ما روى عن الحسين بن الضحاك قال أنشدت أبا نواس قصيدتى التى فيها

وشاطرى اللسان مختلق التكـ * ـريه زان المجون بالنسك

كأنه نصب كأسه قمر * يكرع فى بعض أنجم الفلك

قال فأنشدنى أبو نواس بعد أيام قصيدته التى يقول فيها

أعاذل اعتبت الامام واعتبا * وأعربت عما فى الضمير وأعربا

وقلت لساقيها اجزها فلم أكد * ليأبى أمير المؤمنين وأشربا

يجوزها عنى عقارا ترى لها * الى الشرف الاعلى شعاعا مطنبا

اذا عب فيها شارب القوم خلته * يقبل فى داج من الليل كوكبا

قال فقلت له يا أبا على هذه مقالته فقال أتظن انه يروى لك معنى وأنا حى فتأمل هذا الاخذ وهذا الوضع وهذا الاتباع أما الخليع فقد رأى الابداع فى المعنى فأما العبارات فانها ليست على ما ظنه لان قوله يكرع ليس بصحيح وفيه ثقل بين وتفاوت وفيه احالة لان القمر لا يصح

تصوراً أن يكرع في نجم وأما قول أبي نواس اذا عب فيها فكلمة قد قصد فيها المتانة وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشرب ولو فعل ذلك كان أملح وقوله شارب القوم فيه ضرب من التكلف الذي لا بد له منه أو من مثله لاقامة الوزن ثم قوله خلته يقبل في داج من الليل كوكبا تشبيه بحالة واحدة من أحواله وهي ان يشرب حيث لا ضوء هنالك وانما يتناوله ليلا فليس بتشبيه مستوفى على ما فيه من الوقوع والملاحة وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه وأملح وأبدع

ومهفهف تمت محاسنه * حتى تجاوز منية النفس

تصبو الكؤس الى مراشفه * وتحن في يده الى الحبس

أبصرته والكأس بين فم * منه وبين أنامل خمس

وكأنها وكأن شاربها * قمر يقبل عارض الشمس

ولا شك في أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب الا أنه تمكن من ايراده في بيتين وهما مع سبقهما الى المعنى أتيا به في بيت واحد وانما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة يقع فيها التنافس والتعارض والاطماع متعلقة بها والهمم تسمو اليها وهي الف طباعنا وطوع مداركنا ومجانس لكلامنا واعجاب قوم بنحو هذا وما يجري مجراه وايثار أقوام لشعر البحتري على أبي تمام وعبد الصمد وابن الرومي وتقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه وذهاب قوم عن المعرفة ليس بأمر يضر بنا ولا سبب يعترض على أفهامنا ونحن نعمد الى بعض قصائد البحتري فنتكلم عليها كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة ويستخلص من سر المعرفة سريرة ويعلم كيف تكون الموازنة وكيف تقع المشابهة والمقاربة ونجعل تلك القصيدة التي نذكرها أجود شعره سمعت الصاحب اسماعيل بن عباد يقول سمعت أبا الفضل بن العميد يقول سمعت أبا مسلم الرستمي يقول سمعت البحتري يذكر أن أجود شعر قاله (أهلا بذلكم الخيال المقبل) قال وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول أجود شعره هو قوله في الشيب زجرا له لو كان ينزجر قال وسئلت عن ذلك فقلت البحتري أعرف بشعر نفسه من غيره فنحن الآن نقول في هذه القصيدة ما يصلح في مثل هذا قوله

أهلا بذلكم الخيال المقبل * فعل الذي نهواه أو لم يفعل

برق سرى في بطن وجرة فاهتدت * بسناه أعناق الركاب الضلل

البيت الاول في قوله ذلكم الخيال ثقل روح وتطويل وحشو وغيره أصلح له وأخف منه قول الصنوبري

أهلا بذلك الزور من زور * شمس بدت في فلك الدور

وعذو به الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف فيصير الى الكزازة وتعود ملاحته بذلك ملوحة وفصاحته عياو براعته تكلفا وسلاسته تعسفا وملاسته تلويا وتعقدا فهذا فصل وفيه شئ آخر وهو أن هذا الخطاب انما يستقيم مهما خوطب به الخيال حال اقباله فأما أن يحكى الحال التى كانت وسلفت على هذه العبادة ففيه عهدة وفى تركيب الكلام عن هذا المعنى عقدة وهو لبراعته وحذقه فى هذه الصنعة يعلق نحو هذا الكلام ولا ينظر فى عواقبه لان ملاحة قوله تغطى على عيون الناظرين فيه نحو هذه الامور ثم قوله فعل الذى نهواه أو لم يفعل ليست بكلمة رشيقة ولا لفظة ظريفة وان كانت كسائر الكلام فأما بيته الثانى فهو عظيم الموقع فى البهجة وبديع المأخذ حسن الرواء أنيق المنظر والمسمع يملأ القلب والفهم ويفرح الخاطر وترى بشاشته فى العروق وكان البحترى يسمى نحو هذه الابيات عروق الذهب وفى نحوه ما يدل على براعته فى الصناعة وحذقه فى البلاغة ومع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل مع الديباجة الحسنة والرونق المليح وذلك أنه جعل الخيال كالبرق لاشراقه فى مسراه كما يقال انه يسرى كنسيم الصبا فيطيب ما مر به كذلك يضيء ما مر حوله وينور ما مر به وهذا غلو فى الصنعة الا أن ذكره بطن وجرة حشو وفى ذكره خلل لان النور القليل يؤثر فى بطون الارض وما اطمأن منها بخلاف ما يؤثر فى غيرها فلم يكن من سبيله أن يربط ذلك ببطن وجرة وتحديده المكان على الحشو أحمد من تحديد امرئ القيس من ذكر سقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة لم يقنع بذكر حد حتى حده بأربع حدود كانه يريد بيع المنزل فيخشى ان أخل بحد أن يكون بيعه فاسدا أو شرطه باطلا فهذا باب ثم انما يذكر الخيال بخفاء الاثر ودقة المطلب ولطف المسلك وهذا الذى ذكر يضاد هذا الوجه ويخالف ما يوضع عليه أصل الباب ولا يجوز أن يقدر مقدر أن البحترى قطع الكلام الاول وابتدأ بذكر برق لمع من ناحية حبيبه من جهة بطن وجرة لان هذا القطع ان كان فعله كان خارجا به عن النظم المحمود ولم يكن مبدعا ثم كان لا تكون فيه فائدة لان كل برق شعل وتكرر وقع الاهتداء به فى الظلام وكان لا يكون بما نظمه مفيدا ولا متقدما وهو على ما كان من مقصده فهو ذو لفظ محمود ومعنى مستجب غير مقصود ويعلم عمله أنه طلب العبارات وتعليق القول بالاشارات وهذا من الشعر الجنس الذى يحلو لفظه وتقل فوائده كقول القائل

ولما قضينا من منى كل حاجة ✱ ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ✱ ولا ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا ✱ وسالت بأعناق المطى الأباطح

هذه ألفاظ بعيدة المطالع والمقاطع حلوة المجانى والمواقع قليلة المعانى والفوائد فأما قول البحترى بعد ذلك

من غادة منعت وتمنع نيلها * فلو أنها بذلت لنا لم تبذل
كالبدر غير مخيل والغصن غير مميل والدعص غير مهيل

فالبيت الاول على ما تكلف فيه من المطابقة وتجشم الصنعة ألفاظه أوفر من معانيه وكلماته أكثر من فوائده وتعلم أن القصد وضع العبارات فى مثله ولو قال هى ممنوعة مانعة كان ينوب عن تطويله وتكثيره الكلام وتهويله ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان وأما البيت الثانى فأنت تعلم أن التشبيه بالبدر والغصن والدعص أمر منقول متداول ولا فضيلة فى التشبيه بنحو ذلك وانما يبقى تشبيهه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء فى البيت وهذا أيضا قريب لأن المعنى مكرر ويبقى له بعد ذلك شئ آخر وهو تعمله للترصيع فى البيت كله الا أن هذه الاستثناآت فيها ضرب من التكلف لأن التشبيه بالغصن كاف فاذا زاد فقال كالغصن غير معوج كان ذلك من باب التكلف خالد وكان ذلك زيادة يستغنى عنها وكذلك قوله كالدعص غير مهيل لأنه اذا انهال خرج عن أن يكون مطلق التشبيه مصروفا اليه فلا يكون لتقييده معنى وأما قوله

ما الحسن عندك يا سعاد بمحسن * فيما أتاه ولا الجمال بمجمل
عذل المشوق وان من سيما الهوى * فى حيث تجهله لجاج العذل

قوله فى البيت الاول عندك حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة والمعنى الذى قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء وفيه شئ آخر لانه يذكر أن حسنها لم يحسن فى تهييج وجده وتهييم قلبه وضد هذا المعنى هو الذى يميل اليه أهل الهوى والحب وبيت كشاجم أسلم من هذا وأبعد من الخلل وهو قوله

بحياة حسنك أحسنى وبحق من * جعل الجمال عليك وقفا اجملى

وأما البيت الثانى فان قوله فى حيث حشا بقوله فى كلامه ووقع ذلك مستنكرا وحشيا نافرا عن طبعه جافيا فى وضعه فهو كرقعة من جلد فى ديباج حسن فهو يمحو حسنه ويأتى على جماله ثم فى المعنى شئ لان لجاج العذل لا يدل على هوى مجهول ولو كان مجهولا لم يهتدوا للعذل عليه فعلم أن المقصد استجلاب العبارات دون المعانى ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن فى البيت معنى بديع ولا شئ يفوت قول الشعراء فى العذل فان ذلك جلهم الذلول وقولهم المكرر وأما قوله

ماذا عليك من انتظار متيم * بل ما يضرك وقفة فى منزل

ان سيل بحيّ عن الجواب فلم يطق * رجعا فكيف يكون ان لم يسئل

لست أنكر حسن البيتين وظرفهما ورشاقتهما ولطفهما وماءهما وبهجتهما الا أن البيت الاول منقطع عن الكلام المتقدم ضربا من الانقطاع لانه لم يجر لمشافهة العاذل ذكر وانما جرى ذكر العذال على وجه لايتصل هذا البيت به ولا يلائم ثم الذى ذكره من الانتظار وان كان مليحا فى اللفظ فهو فى المعنى متكلف لان الواقف فى الدار لاينتظر أمرا وانما يقف تحسرا وتذللا وتحيرا والشطر الاخير من البيت واقع والاول مستجلب وفيه تعليق على أمر لم يجر له ذكر لان وضع البيت يقتضى تقدم عذل على الوقوف ولم يحصل ذلك مذكورا فى شعره من قبل وأما البيت الثانى فانه معلق بالاول لا يستقل الا به وهم يعيبون وقوف البيت على غيره ويرون أن البيت التام هو المجود والمصراع التام بنفسه بحيث لايقف على المصراع الآخر أفضل وأتم وأحسن وقوله فكيف يكون ان لم يسئل مليح جدا ولا تستمر ملاحة ماقبله عليه ولا يطرد فيه الماء اطراده فيه وفيه شئ آخر لانه لايصلح أن يكون السؤال سببا لان يعيا عن الجواب وظاهر القول يقتضيه فأما قوله

لاتكلف لى الدموع فان لى * دمعا ينم عليه ان لم يفضل

ولقد سكنت الى الصدود من النوى * والشرى أريا عند طعم الحنظل

وكذاك طرفه حين أوجس ضربة * فى الرأس هان عليه فصد الاكحل

فالبيت الاول مخالف لما عليه مذهبهم فى طلب الاسعاد بالدموع والاسعاف بالبكاء ومخالف لاول كلامه لانه يفيد مخاطبة العذل وهذا يفيد مخاطبة الرفيق وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها دون ضبط المعانى وترتيبها ولذلك قال الله عز وجل والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون فأخبر انهم يتبعون القول حيث توجه بهم واللفظ كيف أطاعهم والمعانى كيف يتبع ألفاظهم وذلك خلاف ماوضع عليه الابانة عن المقاصد بالخطاب ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن فصار بهذا أبلغ خطابهم ثم لو أن هذا البيت ومايتلوه من البيتين سلم من نحو هذا لم يكن فى ذلك شئ يفوت شعر شاعر أو كلام متكلم وأما قوله والشرى أرى فانه وان كان قد تصنع له من جهة الطباق ومن جهة التجنيس المقارب فهى كلمة ثقيلة على اللسان وهم يذمون نحو هذا كما عابوا على أبى تمام قوله

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى * ومتى مالمته لمته وحدى

ذكر لى الصاحب بن عباد أنه جارى أبا الفضل بن العميد فى محاسن القصيدة حتى انتهى الى هذا البيت فذكر له أن قوله أمدحه أمدحه معيب لثقله من جهة تدارك حروف الحلق ثم

رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا في هذه النكتة فعلمت أن ذلك شئ عند أهل الصنعة معروف ثم ان قوله عند أكل الحنظل ليس بحسن ولا واقع وأما البيت الثالث فهو أجنبي من كلامه غريب في طباعه نافر من جملة شعره وفيه كزازة وفجاجة وان كان المعنى صالحا فأما قوله

وأغر في الزمن البهيم محجل * قد رحت منه على أغر محجل
كالهيكل المبني الا أنه * في الحسن جاء كصورة في هيكل

فالبيت الاول لم يتفق له فيه خروج حسن بل هو مقطوع عما سلف من الكلام وعامة خروجه نحو هذا وهو غير بارع في هذا الباب وهذا مذموم معيب منه لأن من كان صناعته الشعر وهو يأكل به وتغافل عما يرفع اليه في كل قصيدة واستهان باحكامه وتجويده مع تتبعه لان يكون عامة ما يصدر به اشعاره من النسيب عشرة أبيات وتتبعه للصنعة الكثيرة وتركيب العبارات وتنقيح الالفاظ وتزويرها كان ذلك أدخل في عيبه وأدل على تقصيره أو قصوره وانه لا يقع له الخروج منه وأما قوله وأغر في الزمن البهيم محجل فان ذكر التحجيل في الممدوح قريب وليس بالجيد وقد يمكن أن يقال انه اذا قرن بالاغر حسن وجرى مجراه وانخرط في سلكه وأهوى الى مضماره ولم ينكر لمكانه من جواره فهذا عذر والعدول عنه أحسن وانما أراد أن يرد العجز على الصدر ويأتي بوجه في التجنيس وفيه شئ لان ظاهر كلامه يوهم أنه قد صار ممتطى الاغر الاول وراكبا عليه ولو سلم من ذلك لم يكن فيه ما يفوت حدود الشعراء وأقاويل الناس فأما ذكر الهيكل في البيت الثاني ورده عجز البيت عليه وظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظة وعمل شيأ حتى كررها فهي كلة فيها ثقل ونحن نجدهم اذا أرادوا أن يصنعوا نحو هذا قالوا ماهو الا صورة وماهو الا تمثال وماهو الا دمية وماهو الا ظبية ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان وقد استدرك هو أيضا على نفسه فذكر أنه كصورة في هيكل ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل كان أولى وأجمل ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين لراعوهم بها وأفزعوهم بذكرها وذلك من كلامهم وشبيه بصناعتهم وأما قوله

وافي الضلوع يشد عقد حزامه * يوم اللقاء على معم مخول
أخواله للرستمين بفارس * وجدوده للتبعين بموكل

نبل الحزم مما يمدح به الخيل فهو لم يأت فيه ببديع وقوله يشد عقد حزامه داخل في التكلف والتعسف لا يقبل من مثله وان قبلناه من غيره لانه يتتبع الالفاظ وينقدها نقدا شديدا فهلا قال يشد حزامه أو يأتي بحشو آخر سوى العقد فقد عقد هذا البيت بذكر العقد ثم قوله

يوم اللقاء حشو آخر لا يحتاج اليه وأما البيت الثانى فعناه أصلح من ألفاظه لانها غير مجانسة لطباعه وفيها غلظ ونفار وأما قوله

يهوى كما تهوى العقاب وقد رأت ❊ صيدا وينقض انقضاض الاجدل
متوجس برقيقتين كأنما ❊ تريان من ورق عليه موصل
ما ان يعاف قذى ولو أوردته ❊ يوما خلائق حمدويه الاحول

البيت الاول صالح وقد قاله الناس ولم يسبق اليه ولم يقل مالم يقولوه بل هو منقول وفى سرعة عدو الفرس تشبيهات ليس هذا بأبدعها وقديقولون يفوت الطرف ويسبق الريح ويجارى الوهم ويكد النظر ولولا أن الاتيان على محاسن ما قالوه فى ذلك يخرج الكلام عن غرض الكتاب نقلت لك جملة مما ذهبوا اليه فى هذا المعنى فتتبع تعلم أنه لم يأت فيها بما يجل عن الوصف أو يفوت منتهى الحد على أن الهوى يذكر عند الانقضاض خاصة وليس للفرس هذه الصفة فى الحقيقة الا أن يشبه جده فى العدو بحالة انقضاض البازى والعقاب وليست تلك الحالة بأسرع أحوال طيرانها وأما البيت الثانى فقوله ان الاذنين كأنهما من ورق موصل وانما أراد بذلك حدتهما وسرعة حركتهما واحساسهما بالصوت كما يحس الورق بخفيف الريح وظاهر التشبيه غير واقع واذا ضمن ماذكرنا من المعنى كان المعنى حسنا ولكن لا يدل عليه اللفظ وانما يجرى مجرى المضمن وليس هذا البيت برائق اللفظ ولا مشاكل فيه لطيفة غير قوله متوجس برقيقتين فان هذا القدر هو حسن وأما البيت الثالث فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب انه من باب الاستطراد ونقلنا نظائر ذلك من قول أبى تمام وغيره وقطعة أبى تمام فى نهاية الحسن فى هذا المعنى والذى وقع للبحترى فى هذا البيت عندى ليس بجيد فى لفظ ولا معنى وهو بيت وحش جدا قد صار قذى فى عين هذه القصيدة بل وخزا فيها وبالا عليها قد كدر صفاءها وأذهب بهاءها وماءها وطمس بظلمته سناها وما وجه مدح الفرس بأنه لا يعاف قذى من المياه اذا أوردها كأنه أراد أن يسلك مسلك بشار فى قوله ولا يشرب الماء الا بدم واذا كان لهذا الباب مجانبا وعن هذا السمت بعيدا فهلا وصفها بعزة الشرب كما وصفها المتنبى فى قوله

وصول الى المستصعبات بخيله ❊ فلو كان قرن الشمس ماء لاوردا

وهلا سلك فيه مسلك القائل

وانى للماء الذى شابه القذى ❊ اذا كثرت وراده لعيوف

ثم قوله ولو أوردته يوما حشو بارد ثم قوله حمدويه الاحول وحش جدا فما أمقت هذا البيت وأبغضه وما أثقله وأسخفه وانما غطى على عينه عيبه وزين له ايراده طمعه فى الاستطراد

وهلا طمع فيه على وجه لا يغض من بهجة كلامه ولا معنى ألفاظه فقد كان يمكن ذلك ولا يتعذر فأما قوله

ذنب كما سحب الرداء يذب عن * عرف وعرف كالقناع المسبل

تتوهم الجوزاء فى ارساغه * والبدر فوق جبينه المتهلل

فالبيت الاول وحش الابتداء منقطع عما سبق من الكلام وقد ذكرنا أنه لا يهتدى لوصل الكلام ونظام بعضه الى بعض وانما يتصنع لغير هذا الوجه وكان يحتاج أن يقول ذنب كالرداء فقد حذف الوصل غير متسق ولا مليح وكان من سبيله أن لا يخفى عليه ولا يذهب عن مثله ثم قوله كما سحب الرداء قبيح فى تحقيق التشبيه وليس بواقع ولا مستقيم فى العبارة الا على اضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء وقوله يذب عن عرف ليس بحسن ولا صادق والمحمود ما ذكره امرؤ القيس وهو قوله (فويق الارض ليس بأعزل)

وأما قوله (تتوهم الجوزاء فى ارساغه) فهو تشبيه مليح ولكنه لم يسبق اليه ولا انفرد به ولو نسخت لك ما قاله الشعراء فى تشبيه الغرة بالهلال والبدر والنجم وغير ذلك من الامور وتشبيه الحجول لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها وأمور مليحة قد ذهبوا اليها وليس ذلك موضع كلامنا فتتبع ذلك فى اشعارهم تعلم ما وصفت لك واعلم أنا تركنا بقية كلامه فى وصف الفرس لانه ذكر عشرين بيتا فى ذلك والذى ذكرناه فى هذا المعنى يدل على ما بعده ولا يعدو ما تركناه أن يكون متوسطا الى حد لا يفوت طريقة الشعراء ولو تتبعت أقاويل الشعراء فى وصف الخيل علمت انه وان جمع فأوعى وحشر فنادى ففيهم من سبقه فى ميدانه ومنهم من ساواه فى شأوه ومنهم من داناه فالقبيل واحد والنسيج متشاكل ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من اشعارهم فى ذلك لتقف على ما قلت فتجاوزنا الى الكلام على ما قاله فى المدح فى هذه القصيدة قال

لمحمد بن على الشرف الذى * لا يلحظ الجوزاء الا من عل

وسحابة لولا تتابع مزنها * فينا لراح المزن غير مبخل

والجود يعذله عليه حاتم * سرفا ولا جود لمن لم يعذل

البيت الاول منقطع عما قبله على ما وصفنا به شعره من قطعه المعانى وفصله بينها وقلة تأنيه لتجويد الخروج والوصل وذلك نقصان فى الصناعة وتخلف فى البراعة وهذا اذا وقع فى مواضع قليلة عذر فيها وأما اذا كان بناء الغالب من كلامه على هذا فلا عذر له وأما المعنى الذى ذكره فليس بشئ ما سبق اليه وهو شئ مشترك فيه وقد قالوا فى نحوه وان مجده سماء السماء وقالوا فى نحوه الكثير الذى يصعب نقل جميعه وكما قال المتنبي

وعزمة بعثتها همة زحل * من تحتها بمكان الترب من زحل

وحدثني اسمعيل بن عباد أنه رأى أبا الفضل بن العميد قام لرجل ثم قال لمن حضره أتدري من هذا هو الذي قال في أبيه البحتري (لمحمد بن القاسم الشرف الذي) فذلك يدل على استعظامه البيت عما مدح به من البيت والبيت الثاني في تشبيه جوده بالسحاب قريب وهو حديث مكرر ليس ينفك مديح شاعر منه وكان من سبيله أن يبدع فيه زيادة ابداع كما قد يقع لهم في نحو هذا ولكنه لم يتصنع له وأرسله ارسالا وقد وقع في المصراع الثاني ضرب من الخلل وذلك أن المزن انما يخل اذا منع نيله فذلك موجود في كل نيل ممنوح وكلاهما محمود مع الاسعاف فان أسعف أحدهما ومنع الآخر لم يمكن التشبيه وان كان انما شبه غالب أحدهما بالآخر وذكر قصور أحدهما عن صاحبه حتى أنه قد يخل في وقت والآخر لا يخل بحال فهذا جيد وليس في حمل الالفاظ على الاشارة الى هذا شئ والبيت الثالث وان كان معناه مكررا فلفظه مضطرب بالتأخير والتقديم يشبه ألفاظ المبتدئين وأما قوله

فضل وافضال وما أخذ المدى * بعد المدى كالفاضل المتفضل

سار اذا ادلج العفاة الى الندى * لا يصنع المعروف غير معجل

فالبيت الاول منقطع عما قبله وليس فيه شئ غير التجنيس الذي ليس ببديع لتكرره على كل لسان وقوله ما أخذ المدى فانه لفظ مليح وهو كقول القائل

قد اركب الآلة بعد الآلة * وروى الحالة بعد الحالة

وكقول امرئ القيس (سمو حباب الماء حالا على حال)

ولكنها طريقة مذللة فهو فيها تابع وأما البيت الثاني فقريب في اللفظ والمعنى وقوله لا يصنع المعروف ليس بلفظ محمود وأما قوله

عال على نظر الحسود كأنما * جذبته أفراد النجوم بأحبل

أو ما رأيت المجد ألقى رحله * في آل طلحة ثم لم يتحول

فالبيت الاول منكر جدا في جر النجوم بالارسان موضعه الى العلو والتكلف فيه واقع والبيت الثاني أجنبي عنه بعيد منه واقتتاحه ردئ وما وجه الاستفهام والتقرير والاستبانة والتوقيف والبيتان أجنبيان من كلامه غريبان في قصيدته ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شئ جيد ألا ترى أنه قال بعد ذلك

نفسي فداؤك يا محمد من فتى * يوفي على ظلم الخطوب فتنجلي

اني أريد أبا سعيد والعدى * بيني وبين سحابه المتهلل

كأن هذا ليس من طبعه ولا من سبكه وقوله

مضر الجزيرة كلها وربيعة الـ * خابور توعدني وأزد الموصل

قد جدت بالطرف الجواد فثنه * لأخيك من أدد أبيك بمنصل

البيت الاول حسن المعنى وان كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه التحسين وهذا المعنى قد يمكن ايراده بأحسن من هذا اللفظ وأبدع منه وأرق منه كقوله

اذا غضبت عليك بنو تميم * رأيت الناس كلهم غضابا

والبيت الثاني قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلطف وهو قبيح اللفظ حيث يقول فيه فثنه لأخيك من أدد أبيك ومن أخذه بهذا التعرض لهذا السجع وذكر هذا النسب حتى أفسد به شعره وأما قوله بعد ذلك في وصف السيف يقول

يتناول الروح البعيد مناله * عفوا ويفتح في القضاء المقفل

بابانة في كل حتف مظلم * وهداية في كل نفس مجهل

ماض وان لم تمضه يد فارس * بطل ومصقول وان لم يصقل

ليس لفظ البيت الاول بمضاه لديباجة شعره ولا له بهجة نظمه لظهور أثر التكلف عليه وتبين ثقل فيه وأما القضاء المقفل وفتحه فكلام غير محمود ولا مرضي واستعارة لو لم يستعرها كانت أولى به وهلا عيب عليه كما عيب على أبي تمام قوله

فضربت الشتاء في أخدعيه * ضربة غادرته عودا ركوبا

وقالوا يستحق بهذه الاستعارة أن يصفع في أخدعيه وقد اتبعه البحتري في استعارة الاخدع ولوعا باتباعه فقال في الفتح

واني وقد بلغتني الشرف العلا * واعتقت من ذل المطامع أخدعي

ان شيطانه حيث زين له هذه الكلمة تابعه حين حسن عنده هذه اللفظة لخبيث مارد وردىء معاند أراد أن يطلق أعنة الذم فيه ويسرح جيوش العتب اليه ولم يقنع بقفل القضاء حتى جعل للحتف ظلمة تجلى بالسيف وجعل السيف هاديا في النفس المجهل الذي لا يهتدى اليه وليس في هذا مع تحسين اللفظ وتنميقه شئ لان السلاح وان كان معيبا فانه يهتدي الى النفس وكان يجب أن يبدع في هذا ابداع المتنبي في قوله

كأن الهام في الهيجا عيون * وقد طبعت سيوفك من رقاد

وقد صغت الاسنة من هموم * فما يخطرن الا في فؤاد

فالاهتداء على هذا الوجه في التشبيه بديع حسن وفي البيت الاول شئ آخر وذلك أن قوله ويفتح في القضاء في هذا الموضع حشو ردىء يلحق بصاحبه اللكنة ويلزمه الهجنة وأما البيت الثالث فانه أصلح هذه الابيات وان كان ذكر الفارس حشوا وتكلفا ولغوا الان

هذا لا يتغير بالفارس والراجل على أنه ليس فيه بديع وأما قوله

يغشى الوغى والترس ليس بجنة * من حده والدرع ليس بمعقل

مصغ الى حكم الردا فاذا مضى * لم يلتفت واذا قضى لم يعدل

متوقد يبرى بأول ضربة * ما أدركت ولو أنها فى يذبل

البيتان الاولان من الجنس الذى يكثر كلامه عليه وهى طريقه الذى يجتنبها وذلك من السبك الكتابى والكلام المعتدل الا أنه لم يبدع فيها بشئ وقد زيد عليه فيها ومن قصد الى أن يكمل عشرة أبيات فى وصف السيف فليس من حكمه أن يأتى بأشياء منقولة وأمور مذكورة وسبيله أن يغرب ويبدع كما أبدع المتنبى فى قوله

سله الركض بعد وهن بنجد * فتصدى للغيث أهل الحجاز

هذا فى باب صقاله وأضوائه وكثرة مائه وكقوله

ريان لو قذف الذى أسقيته * لجرى من المهجات بحر مزبد

وقوله مصغ الى حكم الردى ان تأملته مقلوب كان ينبغى أن يقول يصغى الردى الى حكمه كما قال الآخر (فالسيف يأمر والاقدار تنتظر)

وقوله واذا قضى لم يعدل متكرر على ألسنتهم فى الشعر خاصة فى نفس هذا المعنى والبيت الثالث سليم وهو كالاول فى خلوه عن البديع فأما قوله

فاذا أصاب فكل شئ مقتل * واذا أصيب فماله من مقتل

وكأنما سود النمال وحمرها * دبت بأيد فى قراه وأرجل

البيت الاول يقصد به صنيعة اللفظ وهو فى المعنى متفاوت لان المضرب قد لا يكون مقتلا وقد يطلق الشعراء ذلك ويرون أن هذا أبدع من قول المتنبى وأنه بضده

يقتل السيف فى جسم القتيل به * وللسيوف كما للناس آجال

وهذه طريقة لهم يتمدحون بها فى قصف الرمح طعنا وتقطيع السيف ضربا وفى قوله واذا أصيب فماله من مقتل تعسف لانه يريد بذلك أنه لا يتكسر فالتعبير عما عبر به عن المعنى الذى ذكرناه يتضمن التكلف وضربا من المحال وليس بالنادر والذى عليه الجلة ما حكيناه عن غيره ونحوه قال بعض أهل الزمان

يقصف فى الفارس السمهرى وصدر الحسام فريقا فريقا

والبيت الثانى أيضا هو معنى مكرر على ألسنة الشعراء وأما تصنيعه بسود النمال وحمرها فليس بشئ ولعله أراد بالحمر الذر والتفصيل بارد والاعراب به منكر وهو كما حكى عن بعضهم أنه قال كان كذا حين كانت الثريا بحذاء رأسى على سواء أو منحرفا قدر شبر أو نصف

شبرأو أصبع أو مايقارب ذلك فقيل له هذا من الورع الذى يبغضه الله ويمقته الناس ورب زيادة كانت نقصانا ووصفه النمل بالسواد والحمرة فى هذا من ذلك الجنس وعليه خرج بقية البيت فى قوله (دبت بأيد فى قراه وأرجل)

وكان يكفى ذكر الارجل عن ذكر الايدى ووصف الفرند بدبيب النمل شئ لايشذ عن أحد منهم وأما قوله

وكأن شاهره اذا استضوى به الز * حفان يعصى بالسماك الاعزل

حملت حمائله القديمة بقلة * من عهد عاد غضة لم تذبل

البيت الاول منهما فيه ضرب من التكلف وهو منقول من أشعارهم وألفاظهم وانما يقول قريشد على الرجال بكوكب فجعل ذلك الكوكب السماك واحتاج الى أن يجعله أعزل للقافية ولو لم يحتج الى ذلك كان خيرا له لان هذه الصفة فى هذا الموضع تنقصه من الموضع وموضع التكلف الذى ادعيناه الحشو الذى ذكره من قوله اذا استضوى به الزحفان وكان يكفى أن يقول كأن صاحبه يعصى بالسماك وهذا وان كان قد تعمل فيه للفظ فهو لغو على ما بينا وأما البيت الثانى ففيه لغو من جهة قوله حمائله قديمة ولا فضيلة له فى ذلك ثم تشبيه السيف بالبقلة من تشبيهات العامة والكلام الرذل النذل لأن العامة قد يتفق منها تشبيه واقع حسن ثم انظر الى هذا المقطع الذى هو بالعى أشبه منه بالفصاحة والى اللكنة أقرب منه الى البراعة وقد بينا أن مراعاة الفواتح والخواتم والمطالع والمقاطع والفصل والوصل بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لابد منه وان الاخلال بذلك يخل بالنظم ويذهب رونقه ويحيل بهجته ويأخذ ماءه وبهاءه وقد أطلت عليك فيما نقلت وتكلفت ماسطرت لان هذا القبيل قبيل موضوع متعمل مصنوع وأصل الباب فى الشعر على أن ينظر الى جملة القصة ثم يتعمل الالفاظ ولا ينظر بعد ذلك الى مواقعها ولا يتأمل مطارحها وقد يقصد تارة الى تحقيق الاغراض وتصوير المعانى التى فى النفوس ولكنه يلحق بأصل بابه ويميل بك الى موضعه وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها التفاضل وان أردت أن تعرف أوصاف الفرس فقد ذكرت لك أن الشعراء قد تصرفوا فى ذلك بما يقع اليك ان كنت من أهل الصنعة مما يطول على نقله وكذلك فى السيف وذكر لى بعض أهل الادب أن أحسن قطعة فى السيف قول أبى الهول الحميرى

حاز صمصامة الزبيدى من * بين جميع الانام موسى الامين

سيف عمرو وكان فيما سمعنا * خير ما أطبقت عليه الجفون

أخضر اللون بين برديه حد * من ذعاف تميس فيه المنون

أوقدت فوقه الصواعق نارا * ثم شابت له الذعاف القيون
فاذا ما شهرته بهر الشمـ * ـس ضياء فلم تكد تستبين
يستطير الابصار كالقبس المشـ * ـتعل لا تستقيم فيه العيون
وكان الفرند والرونق الجا * رى فى صفحتيه ماء معين
نعم مخراق ذى الحفيظة فى الهيـ * ـجاء يعصى به ونعم القرين
مايبالى اذا انتحاه لضرب * أشمال سطت به أم يمين

وانما يوازن شعر البحترى بشعر شاعر من طبقته ومن أهل عصره ومن هو فى مضماره أو فى منزلته ومعرفته أجناس الكلام والوقوف على أسراره والوقوع على مقداره شئ وان كان عزيزا وأمر وان كان بعيدا فهو سهل على أهله مستجيب لاصحابه مطيع لاربابه ينقدون الحروف ويعرفون الصروف وانما يتفق الشبهة فى ترتيب الحال بين البحترى وأبى تمام وابن الرومى وغيره ونحن وان كنا نفضل البحترى بديباجة شعره على ابن الرومى وغيره من أهل زمانه ونقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقد قوله والشعر قبيل ملتمس مستدرك وأمر ممكن منطبع ونظم القرآن عال عن أن يعلق به الوهم أو يسمو اليه الفكر أو يطمع فيه طامع أو يطلبه طالب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وكنت قد ذكرت لك قبل هذا انك ان كنت بصنعة علم اللسان متدربا وفيه متوجها متقدما أمكنك الوقوف على ما ذكرنا والنفوذ فيما وصفنا والا فاجلس فى مجلس المتقلدين وارض بمواقف المتحيرين ونصحت لك حيث قلت انظر هل تعرف عروق الذهب ومحاسن الجوهر وبدائع الياقوت ودقائق السحر من غير معرفة بأسباب هذه الأمور ومقدماتها وهل يقطع سمت البلاد من غير اهتداء فيها ولكل شئ طريق يتوصل اليه به وباب يؤخذ نحوه فيه ووجه يؤتى منه ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك وأغمض وأدق وألطف وتصوير ما فى النفس وتشكيك ما فى القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده وان كان قد يقع بالاشارة ويحصل بالدلالة والامارة كما يحصل بالنطق الصريح والقول الفصيح فللاشارات أيضا مراتب وللسان منازل رب وصف يصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه ورب وصف يربو عليه ويتعداه ورب وصف يقصر عنه ثم اذا صدق الوصف انقسم الى صحة واتقان وحسن واحسان والى اجمال وشرح والى استيفاء وتقريب والى غير ذلك من الوجوه وكل مذهب وطريق وله باب وسبيل فوصف الجملة الواقعة كقوله تعالى لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا والتفسير كقوله ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا

الى آخر الآيات في هذا المعنى وكنحو قوله يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد هذا مما يصور الشئ على جهته ويمثل أهوال ذلك اليوم ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا قالوا انا الى ربنا لمنقلبون انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين وقال في موضع آخر انا الى ربنا منقلبون وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين وهذا ينبئ عن كلام الحزين لما ناله الجازع لما مسه ومن باب التسخير والتكوين قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون وقوله قلنا لهم كونوا قردة خاسئين وكقوله فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وتقصي أقسام ذلك مما يطول ولم أقصد استيفاء ذلك وانما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل وأشرت اليك بما أشرت لتتأمل وانما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحتري لأن الكتاب يفضلونه على أهل دهره ويقدمونه على من في عصره ومنهم من يدعى له الاعجاز غلوا ويزعم أنه يناغي النجم في قوله علوا والملحدة تستظهر بشعره وتستكثر بقوله وتدعى كلامه من شبهاتهم وعباراته مضافا الى ما عندهم من ترهاتهم فبينا قدر درجته وموضع رتبته وحد كلامه وهيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس منه وأن يكون الليل كالنهار والباطل كالحق وكلام رب العالمين ككلام البشر فان قال قائل فقد قدح الملحد في نظم القرآن وادعى عليه الخلل في البيان وأضاف اليه الخطأ في المعنى واللفظ وقال ما قال فهل من فصل قبل الكلام على مطاعن الملحدة في القرآن مما قد سبقنا اليه وصنف أهل الأدب في بعضه فكفوا وأتى المتكلمون على ما وقع اليهم فشفوا ولولا ذلك لاستقصينا القول فيه في كتابنا وأما الغرض الذي صنفنا فيه في التفصيل والكشف عن اعجاز القرآن فلم نجده على التقريب الذي قصدنا وقدرجونا أن يكون ذلك مغنيا وواقعا وان سهل الله لنا ما نوينا من املاء معاني القرآن ذكرنا في ذلك ما يشتبه من الجنس الذي ذكروه لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه فانما يقع على جهل القوم بالمعاني أو بطريقة كلام العرب وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه وقد قصدنا فيما أمليناه الاختصار ومهدنا الطريق فمن كمل طبعه للوقوع على فضل أجناس الكلام استدرك ما بينا ومن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والأخطل والحكم بين فضل زهير والنابغة أو الفضل بين البحتري وأصحابه ولم يعرف سخف

مسيلمة فى نظمه ولم يعلم أنه من الباب الذى يهزأ به ويسخر منه كشعر أبى العيس فى جملة الشعر وشعر على بن صلاءة فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا والحكم على ما بينا فان قال قائل فاذكر لنا من هؤلاء الشعراء الذين سميتهم الاشعر والأبلغ قيل له هذا أيضا خارج عن غرض هذا الكتاب وقد تكلم فيه الأدباء ويحتاج أن يجدد لنحو هذا كتاب ويفرد له باب وليس من قبيل ما نحن فيه بسبيل وليس لقائل أن يقول قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب ويبلغ أمده فى الفصاحة والنظم العجيب ولا يبلغ عندكم حد المعجز فلم قضيتم بما قضيتم به فى القرآن دون غيره من الكلام وانما لم يصح هذا السؤال وما ذكر فيه من اشعار فى نهاية الحسن وخطب ورسائل فى غاية الفضل لأنا قد بينا أن هذه الأجناس قد وقع النزاع فيها والمساماة عليها والتنافس فى طرقها والتنافر فى بابها وكان البون بين البعض والبعض فى الطبقة الواحدة قريبا والتفاوت خفيفا وذلك القدر من السبق ان ذهب عند الواحد لم ييأس منه الباقون ولم ينقطع الطمع فى مثله وليس كذلك سمت القرآن لأنه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته وأن الكل فى العجز عنه على حد واحد وكذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذى لا يؤخذ فيه والباب الذى لا يذهب عنه وأنت تجد قوما يرون كلامه قريبا ومنهاجه معيبا ونطاق قوله ضيقا حتى يستعين بكلام غيره ويفزع الى ما يوشح به كلامه من بيت سائر ومثل نادر وحكمة ممهدة منقولة وقصة عجيبة مأثورة وأما كلامه فى أثناء ذلك فسطور قليلة وألفاظ يسيرة فاذا أحوج الى تطويل الكلام خاليا عن شئ يستعين به فيخلطه بقوله من قول غيره كان كلاما ككلام غيره فان أردت أن تحقق هذا فانظر فى كتبه فى نظم القرآن وفى الرد على النصارى وفى خبر الواحد وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى هل تجد فى ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع أو كلام مليح على أن متأخرى الكتاب قد نازعوه فى طريقته وجاذبوه على منهجه فنهم من ساواه حين ساماه ومنهم من أبر عليه اذ باراه هذا أبو الفضل بن العميد قد سلك مسلكه وأخذ طريقه فلم يقصر عنه ولعله قد بان تقدمه عليه لأنه يأخذ فى الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ويكملها على شروط صنعته ولا يقتصر على أن يأتى بالأسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعله فى كتبه متى ذكر من كلامه سطرا أتبعه من كلام الناس أوراقا واذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابا وهذا يدلك على أن الشئ اذا استحسن اتبع واذا استملح قصد له وتعمد وهذا الشئ يرجع الى الأخذ بالفضل والتنافس فى التقدم فلو كان فى مقدور البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده لكثرت المعارضات ودامت المنافسات فكيف وهناك دواع لا انتهاء لها وجوالب لا حد لكثرتها لأنهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا الى تكذيبه ثم الى قطع المحامين دونه عنه

أو تنفيرهم عليه وادخال الشبهات على قلوبهم وكان القوم يكتفون بذلك عن بذل النفوس ونصب الأرواح والأخطار بالأموال والذرارى فى وجه عداوته ويستغنون بكلام هو طبعهم وعادتهم وصناعتهم عن محاربته وطول منافسته ومجاذبته وهذا الذى عرضناه على قلبك يكفى ان هديت لرشدك ويشفى ان دللت على قصدك ونسأل الله حسن التوفيق والعصمة والتسديد انه لا معرفة الا بهدايته ولا عصمة الا بكفايته وهو على مايشاء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل

(فصـــل)

فان قال قائل قد يجوز أن يكون أهل عصر النبى صلى الله عليه وسلم قد عجزوا عن الاتيان بمثل القرآن وان كان من بعدهم من أهل الأعصار لم يعجزوا قيل هذا سؤال معروف وقد أجيب عنه بوجوه منها ماهو صواب ومنها ما فيه خلل لان من كان يجيب عنه بأنهم لا يقدرون على معارضته فى الاخبار عن الغيوب ان قدروا على مثل نظمه فقد سلم المسئلة لانا ذكرنا أن نظمه معجز لا يقدر عليه فاذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل عن مراده والوجه أن يقال فيه طرق منها أنا اذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الاتيان بمثله فمن بعدهم أعجز لان فصاحة أولئك فى وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم فاما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا ومنها أنا قد علمنا عجز أهل سائر الاعصار كعلمنا بعجز أهل العصر الاول والطريق فى العلم بكل واحد من الامرين طريق واحد لان التحدى فى الكل على جهة واحدة والتنافر فى الطباع على حذو التكلف على منهاج لا يختلف ولذلك قال الله تبارك وتعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا

﴿ فصل فى التحدى ﴾

يجب أن نعلم أن من حكم المعجزات اذا ظهرت على الانبياء أن يدعوا فيها انها من دلالتهم وآياتهم لأنه لا يصح بعثة النبى من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية لأن النبى لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه ولا بشئ آخر سوى البرهان الذى يظهر عليه فيستدل به على صدقه فاذا ذكر لهم ان هذه آيتى وكانوا عاجزين عنها صح له ما ادعاه ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهانا له وليس يكون ذلك معجزا بأن يتحداهم الى أن يأتوا فاذا تحداهم وبان عجزهم صار ذلك معجزا وانما احتيج فى باب القرآن الى التحدى لان من الناس من لا يعرف كونه معجزا فانما يعرف أولا اعجازه بطريقه لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته وانما يحتاج الى علم وطريق يتوصل به الى معرفة كونه معجزا فان كان لا يعرف بعضهم اعجازه فيجب أن يعرف هذا حتى يمكنه أن يستدل به ومتى رأى أهل ذلك

اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدى اليه والتقريع به والتمكين منه صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصا ثعبانا تتلقف ما يأفكون وأما من كان من أهل صنعة العربية والتقدم فى البلاغة ومعرفة فنون القول ووجوه المنطق فانه يعرف حين يسمعه عجزه عن الاتيان بمثله ويعرف أيضا أهل عصره ممن هو فى طبقته أو يدانيه فى صناعته عجزهم عنه فلا يحتاج الى التحدى حتى يعلم به كونه معجزا ولو كان أهل الصنعة الذين صفتهم ما بينا الا يعرفون كونه معجزا حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه لم يجز أن يعرف النبى صلى الله عليه وسلم أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدى اليه واذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهى الى التحدى الى أقصاهم وحتى يعرف عجز مسيلمة الكذاب عنه ثم يعرف حينئذ كونه معجزا وهذا القول ان قيل أفحش ما يكون من الخطأ فيجب أن تكون منزلة أهل الصنعة فى معرفة اعجاز القرآن بأنفسهم منزلة من رأى اليد البيضاء وفلق البحر بأن ذلك معجز وأما من لم يكن من أهل الصنعة فلابد له من مرتبة قبل هذه المرتبة يعرف بها كونه معجزا فيساوى حينئذ أهل الصنعة فيكون استدلالهما فى تلك الحالة به على صدق من ظهر ذلك عليه على سواء اذا ادعاه دلالة على نبوته وبرهانا على صدقه فأما من قدر أن القرآن لا يصير معجزا الا بالتحدى اليه فهو كتقدير من ظن أن جميع آيات موسى وعيسى عليهما السلام ليست بآيات حتى يقع التحدى اليها والحض عليها ثم يقع العجز عنها فيعلم حينئذ انها معجزات وقد سلف من كلامنا فى هذا المعنى ما يغنى عن الاعادة ويبين ما ذكرناه فى غير البليغ أن الاعجمى الآن لا يعرف اعجاز القرآن الا بأمور زائدة على الأعجمى الذى كان فى ذلك الزمان مشاهدا له لأن من هو من أهل العصر يحتاج أن يعرف أولا أن العرب عجزوا عنه وانما يعلم عجزهم عنه بنقل الناقلة اليه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تحدى العرب اليه فعجزوا عنه ويحتاج فى النقل الى شروط وليس يصير القرآن بهذا النقل معجزا كذلك لا يصير معجزا بأن يعلم العربى الذى ليس ببليغ أنهم قد عجزوا عنه بأبلغهم بل هو معجز فى نفسه وانما طريق معرفة هذا وقوعهم على العلم لعجزهم عنه

فصل فى قدر المعجز من القرآن

الذى ذهب اليه عامة أصحابنا وهو قول أبى الحسن الأشعرى فى كتبه أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرها قال فاذا كانت الآية بقدر حروف سورة وان كانت سورة الكوثر فذلك معجز قال ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة فى أقل من هذا القدر وذهب المعتزلة الى أن كل سورة برأسها فهى معجزة وقد

حكى عنهم نحو قولنا الا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة بل شرط الآيات الكثيرة وقد علمنا أنه تحداهم تحديا الى السور كلها ولم يخص ولم يأتوا لشئ منها بمثل فعلم أن جميع ذلك معجز وأما قوله عز وجل فليأتوا بحديث مثله فليس بمخالف لهذا لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة وهذا يؤكد ماذهب اليه أصحابنا ويؤيده وان كان قد يتأول قوله فليأتوا بحديث مثله على أن يكون راجعا الى القبيل دون التفصيل وكذلك يحمل قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله على القبيل لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الاتيان بجميعه من أوله الى آخره فان قيل هل تعرفون اعجاز السور القصار بما تعرفون به اعجاز السور الطوال وهل تعرفون اعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحد الذى قدرتموه بمثل ماتعرفون به اعجاز سورة البقرة ونحوها فالجواب أن أبا الحسن الاشعرى رحمه الله أجاب عن ذلك بأن كل سورة قد علم كونها معجزة بعجز العرب عنها وسمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول ان ذلك يصح أن يكون علم ذلك توقيفا والطريقة الاولى أسد وليس هذا الذى ذكرناه أخيرا بمناف له لأنه لا يمتنع أن يعلم اعجازه بطرق مختلفة تتوافى عليه وتجتمع فيه واعلم أن تحت اختلاف هذه الأجوبة ضربا من الفائدة لأن الطريقة الاولى تبين أن ماعلم به كون جميع القرآن معجزا موجود فى كل سورة صغرت أو كبرت فيجب أن يكون الحكم فى الكل واحدا والطريقة الاخيرة تتضمن تعذر معرفة اعجاز القرآن بالطريقة التى سلكناها فى كتابنا من التفصيل الذى بينا فيما يعرف به فى الكلام الفصاحة وتتبين فيه البلاغة حتى يعلم ذلك بوجه آخر فيستوى فى هذا القدر البليغ وغيره فى أن لا يعلمه معجزا حتى يستدل به من وجه آخر سوى ما يعلمه البلغاء من التقدم فى الصنعة وهذا غير ممتنع ألا ترى أن الاعجاز فى بعض السور والآيات أظهر وفى بعضها أغمض وأدق فلا يفتقر البليغ فى النظر فى حال بعضها الى تأمل كثير ولا بحث شديد حتى يتبين له الاعجاز ويفتقر فى بعضها الى نظر دقيق وبحث لطيف حتى يقع على الجلية ويصل الى المطلب ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجه فى بعض السور فيحتاج أن يفزع فيه الى اجماع أو توقيف أو ماعلمه من عجز العرب قاطبة عنه فان ادعى ملحد أو زعم زنديق أنه لا يقع العجز عن الاتيان بمثل السور القصار أو الآيات بهذا المقدار قلنا له ان الاعجاز قد حصل بما بيناه وعرف بما وقفنا عليه من عجز العرب عنه ثم فيه شئ آخر وهو أن هذا سؤال لا يستقيم للملحد لانه يزعم أنه ليس فى القرآن كله اعجاز فكيف يجوز أن يناظره على تفصيله واذا ثبت لنا معه اعجازه فى السور الطوال قامت الحجة عليه وثبتت المعجزة ولا معنى لطلبه لكثرة الادلة والمعجزات ونحن نعلم

أن اعجاز البعض بما بيناه والبعض الآخر بأنه اذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك الا قولنا
لأنا عرفنا في البعض الاعجاز بما بينا ثم عرفنا في الباقي بالتوقيف ونحو ذلك وليس بممتنع
اختلاف حال الكلام حتى يكون الاعجاز على بعضه أظهر وفي بعضه أغمض ومن آمن ببعض
دون بعض كان مذموما على ما قال الله تعالى أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض
وقال وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين فظاهره عند بعض أهل التأويل
كالدليل على أن الشفاء ببعضه أوقع وان كنا نقول انه يدل على أن الشفاء في جميعه واعلم أن
الكلام يقع فيه الأبلغ والبليغ ولذلك كانوا يسمون الكلمة يتيمة ويسمون البيت الواحد
يتيما سمعت اسماعيل بن عباد يقول سمعت أبابكر بن مقسم يقول سمعت ثعلبا يقول سمعت
الفراء يقول العرب تسمي البيت الواحد يتيما وكذلك يقال الدرة اليتيمة لانفرادها فاذا
بلغ البيتين والثلاثة فهي نتفة والى العشرة تسمى قطعة واذا بلغ العشرين استحق أن يسمى
قصيدا وذلك مأخوذ من المخ القصيد وهو المتراكم بعضه على بعض وهو ضد الرار ومثله
الرشيد انتهت الحكاية ثم استشهد بقول لبيد

فتذكرا ثقلا رثيدا بعدما * ألقت ذكاء يمينها في كافر

يريد بيض النعام لأنه ينضد بعضه على بعض وكذلك يقع في الكلام البيت الوحشي
النادر والمثل السائر والمعنى الغريب والشئ الذي لو اجتهد له لم يقع عليه فيتفق له
ويصادفه قال لي بعض علماء هذه الصنعة وجاريته في ذلك ان هذا مما الاسباب له بخصه واعما
سببه القرارة في أصل الصنعة والتقدم في عيون المعرفة فاذا وجد ذلك وقع له من الباب
مايطرد عن حساب ومايشذ عن تفصيل الحساب فأما ما قلنا من أن مابلغ قدر السورة
معجز فان ذلك صحيح

(فصل في أنه هل يعلم اعجاز القرآن ضرورة)

ذهب أبو الحسن الأشعري الى أن ظهور ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ضرورة
وكونه معجزا يعلم باستدلال وهذا المذهب محكي عن المخالفين والذي نقوله في هذا ان
الأعجمي لايمكنه أن يعلم اعجازه الا استدلالا وكذلك من لم يكن بليغا فأما البليغ الذي قد
أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة فانه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الاتيان بمثله
ويعلم عجز غيره بمثل مايعرف عجز نفسه كما أنه اذا علم الواحد منا أنه لايقدر على ذلك وهو يعلم
عجز غيره استدلالا

فصل فيما يتعلق به الاعجاز

ان قال قائل بينوا لنا ما الذي وقع التحدي اليه أهو الحروف المنظومة أو الكلام القائم

بالذات أوغير ذلك قيل الذى تحداهم به أن يأتوا بمثل الحروف التى هى نظم القرآن منظومة كنظمها متتابعة كتتابعها مطردة كاطرادها ولم يتحدهم الى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذى لا مثل له وإن كان كذلك فالتحدى واقع الى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة التى هى عبارة عن كلام الله تعالى فى نظمها وتأليفها وهى حكاية لكلامه ودلالات عليه وأمارات له على أن يكونوا مستأنفين لذلك لا حاكين بما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم ولا يجب أن يقدر مقدر أو يظن ظان أنا حين قلنا ان القرآن معجز فانه تحداهم الى أن يأتوا بمثله أردنا غير ما فسرناه من العبارات عن الكلام القديم القائم بالذات وقد بينا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزاً لكونه عبارة عن الكلام القديم لأن التوراة والانجيل عبارة عن الكلام القديم وليس ذلك بمعجز فى النظم والتأليف وكذلك مادون الآية كاللفظة عبارة عن كلامه وليست بمنفردها بمعجزة وقد جوز بعض أصحابنا أن يتحداهم الى مثل كلامه القديم القائم بنفسه والذى عول عليه مشايخنا ماقدمناذكره وعلى ذلك أكثر مذاهب الناس ولم يجب أن نفسر ونذكر موجب هذا المذهب الذى حكيناه ومايتصل به لأنه خارج عن غرض كتابنا لأن الاعجاز واقع فى نظم الحروف التى هى دلالات وعبارات عن كلامه والى مثل هذا النظم وقع التحدى فبينا وجه ذلك وكيفية مايتصور القول فيه وأزلنا توهم من يتوهم أن الكلام القديم حروف منظومة أوحروف غير منظومة أوشئ مؤلف أو غير ذلك مما يصح أن يتوهم على ماسبق من اطلاق القول فيما مضى

فصل فى وصف وجوه من البلاغة

ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام الايجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان فأما الايجاز فانما يحسن مع ترك الاخلال باللفظ والمعنى فيأتى باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة وذلك ينقسم الى حذف وقصر فالحذف الاسقاط للتخفيف كقوله واسأل القرية وقوله طاعة وقول معروف وحذف الجواب كقوله ولوأن قرآنا سيرت به الجبال أوقطعت به الأرض أو كلم به الموتى كأنه قيل لكان هذا القرآن والحذف أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب كل مذهب فى القصد من الجواب والايجاز بالقصد كقوله ولكم فى القصاص حياة وقوله يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو وقوله انما بغيكم على أنفسكم ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله والاطناب فيه بلاغة فأما التطويل ففيه عى وأما التشبيه بالعقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل كقوله والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ وقوله مثل الذين

كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف وقوله وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وقوله انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وقوله انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر وقوله فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان وقوله انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وقوله وجنة عرضها كعرض السماء والارض وقوله مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا وقوله تعالى فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث وقوله كأنهم أعجاز نخل خاوية وقوله مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت وقوله وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام وقوله خلق الانسان من صلصال كالفخار ونحو ذلك ومن ذلك باب الاستعارة وهو بيان التشبيه كقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وكقوله فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين وكقوله انا لما طغى الماء حملنا كم فى الجارية وقوله ولما سكت عن موسى الغضب وكقوله فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة وقوله بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق فالدمغ والقذف مستعار وقوله وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وقوله وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم وقوله فذو دعاء عريض وقوله تضع الحرب أوزارها وقوله والصبح اذا تنفس وقوله مستهم البأساء والضراء وقوله فنبذوه وراء ظهورهم وقوله أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا وقوله حصيدا خامدين وقوله ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وقوله وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وقوله لا تجعل يدك مغلولة الى عنقك وقوله ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الاكبر وقوله فضربنا على آذانهم يريد أن لا احساس بآذانهم من غير صمم وقوله ولما سقط فى أيديهم وهذا أوقع من اللفظ الظاهر وأبلغ من الكلام الموضوع وأما التلاؤم فهو تعديل الحروف فى التأليف وهو نقيض التنافر كقول الشاعر

وقبر حرب بمكان قفر * وليس قرب قبر حرب قبر

قالوا هو من شعر الجن حروفه متنافرة لا يمكن انشاده الا بتتعتع فيه والتلاؤم على ضربين أحدهما فى الطبقة الوسطى كقوله

رمتنى وستر الله بينى وبينها * عشية أن أم الكاس رميم

رميم الذى قالت لجارات بيتها * ضمنت لكم أن لا يزال يهيم
ألا رب يوم لو رمتنى رميتها * ولكن عهدى بالنضال قديم

قالوا والمتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله وان كان بعض الناس أحسن احساسا من بعض كما أن بعضهم يفطن للوزن بخلاف بعض والتلاؤم حسن الكلام فى السمع وسهولته فى اللفظ ووقع المعنى فى القلب وذلك كالخط الحسن والبيان الشافى والمتنافر كالخط القبيح فاذا انضاف الى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الاعجاز لمن كان جيد الطبع وبصيرا بجودة الكلام كما يظهر له أعلى طبقة الشعر والمتنافر ذهب الخليل الى أنه من بعد شديد أو قرب شديد فاذا بعد فهو كالطفر واذا قرب جدا كان بمنزلة مشى المقيد وبين ذلك بقرب مخارج الحروف وتباعدها وأما الفواصل فهى حروف متشاكلة فى المقاطع يقع بها افهام المعانى وفيها بلاغة والاسجاع عيب لأن السجع يتبع المعنى والفواصل تابعة للمعانى والسجع كقول مسيلمة ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة كما قد تقع على حروف متقاربة ولا تحتمل القوافى ما تحتمل الفواصل لأنها ليست فى الطبقة العليا فى البلاغة لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافى واقامة الوزن وأما التجانس فانه بيان بأنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد وهو على وجهين مزاوجة ومناسبة فالمزاوجة كقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وقوله ومكروا ومكر الله وكقول عمرو بن كلثوم

ألا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وأما المناسبة فهى كقوله تعالى ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم وقوله يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار وأما التصريف فهو تصريف الكلام فى المعانى كتصريفه فى الدلالات المختلفة كتصريف الملك فى معانى الصفات فصرف فى معنى مالك وملك وذى الملكوت والمليك وفى معنى التمليك والتملك والاملاك وتصريف المعنى فى الدلالات المختلفة كما كرر من قصة موسى فى مواضع وأما التضمين فهو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هى عبارة عنه وذلك على وجهين تضمين توجبه البنية كقولنا معلوم يوجب أنه لا بد من عالم وتضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح الا به كالصفة بضارب يدل على مضروب والتضمين كله ايجاز والتضمين الذى تدل عليه دلالات القياس أيضا ايجاز وذكر أن بسم الله الرحمن الرحيم من باب التضمين لأنه تضمن تعليم الاستفتاح فى الأمور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى أو التبرك باسمه وأما المبالغة فهى الدلالة على كثرة المعنى وذلك على وجوه منها مبالغة فى الصفة المبنية لذلك كقولك رحمن عدل عن

ذلك للبالغة وكقوله غفار وكذلك فعال وفعول كقولهم شكور وغفور وفعيل كقوله رحيم وقدير ومن ذلك أن يبالغ باللفظة التي هي صفة عامة كقوله خالق كل شئ وكقوله فأتى الله بنيانهم من القواعد وكقوله ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكقوله وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين وقد يدخل فيه الحذف الذي تقدم ذكره للبالغة وأما حسن البيان فالبيان على أربعة أقسام كلام وحال واشارة وعلامة ويقع التفاضل في البيان ولذلك قال عز من قائل الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان وقيل أعيا من باقل سئل عن ظبية في يده بكم اشتراها فأراد أن يقول بأحد عشر فأشار بيديه مادا أصابعه العشر ثم أدلع لسانه وأفلت الظبي من يده ثم البيان على مراتب قلنا قد كنا حكينا أن من الناس من يريد أن يأخذ اعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي ذكرنا أنها تسمى البديع في أول الكتاب مما مضت أمثلته في الشعر ومن الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه التي عددناها في هذا الفصل واعلم أن الذي بيناه قبل هذا وذهبنا اليه هو سديد وهو أن هذه الامور تنقسم فمنها ما يمكن الوقوع عليه والتعمل له ويدرك بالتعلم فما كان كذلك فلا سبيل الى معرفة اعجاز القرآن به وأما ما لا سبيل اليه بالتعلم والتعمل من البلاغات فذلك هو الذي يدل على اعجازه ونحن نضرب لذلك أمثلة لتقف على ما ذهبنا اليه وذكرنا في هذا الفصل عن هذا القائل أن التشبيه تعرف به البلاغة وذلك مسلم ولكن ان قلنا ما وقع من التشبيه في القرآن معجز عرض علينا من التشبيهات الجارية في الاشعار ما لا يخفى عليك وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر وقد تتبع في هذا ما لم يتتبع غيره واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء وكذلك كثير من وجوه البلاغة قد بينا أن تعلمها يمكن وليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره فان كان انما يعني هذا القائل أنه اذا أتى في كل معنى يتفق في كلامه بالطبقة العالية ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض وينتهي منه الى متصرفاته على أتم البلاغة وأبدع البراعة فهذا مما لا نأباه بل نقول به وانما ننكر أن يقول قائل ان بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الاعجاز من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام ويفضي اليه مثل ما يقول ان ما أقسم به وحده بنفسه معجز وان التشبيه معجز وان التجنيس معجز والمطابقة بنفسها معجزة فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه فان ادعى اعجازها لالفاظها ونظمها وتأليفها فاني لا أدفع ذلك وأصححه ولكن لا أدعي اعجازها لموضع التشبيه وصاحب المقالة التي حكيناها أضاف ذلك الى موضع التشبيه وما قرن به من الوجوه ومن تلك الوجوه ما قد بينا أن الاعجاز يتعلق به كالبيان وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس ولذلك

قال هذا بيان للناس وقال تبيانا لكل شئ وقال بلسان عربي مبين فكرر في مواضع ذكره أنه مبين فالقرآن أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه ماجمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه من تعديل النظم وسلامته وحسنه وبهجته وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول وتصوره تصور المشاهد وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسنا وبهجة وسناء ورفعة واذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس مايذهل ويبهج ويقلق ويؤنس ويطمع ويؤيس ويضحك ويبكي ويحزن ويفرح ويسكن ويزعج ويشجي ويطرب ويهز الأعطاف ويستميل نحوه الاسماع ويورث الأريحية والعزة وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجودا ويرمى السامع من وراء رأيه مرمى بعيدا وله مسالك في النفوس لطيفة ومداخل الى القلوب دقيقة وبحسب مايترتب في نظمه ويتنزل في موقعه ويجرى على سمت مطلعه ومقطعه يكون عجيب تأثيراته وبديع مقتضياته وكذلك على حسب مصادره يتصور وجوه موارده وقد ينبئ الكلام عن محل صاحبه ويدل على مكان متكلمه وينبه على عظيم شأن أهله وعلى علو محله ألا ترى أن الشعر في الغزل اذا صدر عن محب كان أرق وأحسن واذا صدر عن متغزل وحصل من متصنع نادى على نفسه بالمداجاة وأخبر عن خبيه في المرآياة وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع فيعلم وجه صدره ويدل على كنهه وحقيقته وقد يصدر عن المتشبه ويخرج عن المتصنع فيعرف من حاله ماظن أنه يخفيه ويظهر من أمره خلاف ما يبديه وأنت تعرف قول المتنبي

فالخيل والليل والبيداء تعرفني * والحرب والطعن والقرطاس والقلم

من الواقع في القلب لما يعلم أنه من أهل الشجاعة مالا تجده للبحترى في قوله

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفي * بعقرقس والمشرفية مشهدى

وتجد لابن المعتز في موقع شعره من القلب في الفخر وغيره مالا تجده لغيره لأنه اذا قال

اذا شئت أوقرت البلاد حوافر * وسارت ورائي هاشم ونزار
وعم سماء النقع حتى كأنه * دخان واطراف الرماح شرار

وقال

قد ترديت بالمكارم حولى * وكفتني نفسي من الافتخار
أنا جيش اذا غزوت وحيدا * ووحيد في الجحفل الجرار

وقال

أيها السائلي عن الحسب الاطـ * ـيب ما فوقه لخلق مزيد
نحن آل الرسول والعترة الحقـ * ـق وأهل القربى فماذا تريد
ولنا ما أضاء صبح عليه * وأتته رايات ليل سود

وكما أنشدنا الحسن بن عبد الله قال أنشدنا محمد بن يحيى لابن المعتز قصيدته التي يقول فيها

أنا ابن الذى سادهم فى الحيا * ة وسادهم بى تحت الثرى

ومالى فى أحد مرغب * بلى فىّ يرغب كل الورى

وأسهر للمجد والمكرما * ت اذا اكتحلت أعين بالكرى

فانظر فى القصيدة كلها ثم فى جميع شعره تعلم أنه ملك الشعر وأنه يليق به من الفخر خاصة ثم مما يتبعه مما يتعلطاه مما لا يليق بغيره بل ينفر عن سواه ولم أحب أن أكثر عليك فأطول الكتاب بما يخرج عن غرضه وكما ترى من قول أبى فراس الحمدانى فى نفسك اذا قال

ولا أصبح الحى الخلوف بغارة * ولا الجيش ما لم يأته قبلى النذر

ويارب دار لم تخفنى منيعة * طلعت عليها بالردى أنا والفجر

وساحبة الاذيال نحوى لقيتها * فلم يلقها جافى اللقاء ولا وعر

وهبت لها ماحازه الجيش كله * وأبت ولم يكشف لابياتها ستر

وماراح يطغينى بأثوابه الغنى * ولابات يثنينى عن الكرم الفقر

وماحاجتى فى المال أبغى وفوره * اذا لم أفر وفرى فلا وفر الوفر

والشئ اذا صدر من أهله وبدا من أصله وانتسب الى ذويه سلم فى نفسه وبان فخامته وشوهد أثر الاستحقاق فيه واذا صدر من متكلف وبدا من متصنع بان أثر الغرابة عليه وظهرت مخايل الاستيحاش فيه وعرف شمائل التحير منه انا نعرف فى شعر أبى نواس أثر الشطارة وتمكن البطالة وموقع كلامه فى وصف ماهو بسبيله من أمر العبارة ووصف الخمر والخمار كما نعرف موقع كلام ذى الرمة فى وصف المهامه والبوادى والجمال والانساع والأزمة وعيب أبى نواس التصرف فى وصف الطلول والرباع والوحش ففكر فى قوله

دع الاطلال تسفيها الجنوب * وتبلى عهد جدتها الخطوب

وخل لراكب الوجناء أرضا * تخب به النجيبة والنجيب

بلاد نبتها عشر وطلح * وأكثر صيدها ضبع وذيب

ولاتأخذ عن الاعراب لهوا * ولا عيشا فعيشهم جديب

دع الألبان يشربها رجال * رقيق العيش عندهم غريب

اذا راب الحليب فبل عليه * ولا تحرج فما فى ذاك حوب

فأطيب منه صافية شمول * يطوف بكأسها ساق أديب

كأن هديرها فى الدن يحكى * قراة القس قابله الصليب

أعاذل أقصرى عن طول لومى * فراجى توبتى عندى يخيب

تعيبين الذنوب وأى حر * من الفتيان ليس له ذنوب

وقوله صفة الطاول بلاغة العدم * فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وسمعت الصاحب اسماعيل بن عباد يقول سمعت برلكويه الزنجانى يقول أنشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الأعشى

ودع هريرة ان الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وكان وصف فيها الطلل قال برلكويه فقال لى هلال فقلت بديها

اذا سمعت فتى يبكى على طلل * من أهل زنجان فاعلم أنه طلل

وانما ذكرت لك هذه الامور لتعلم أن الشئ فى معدنه أعز وفى مظانه أحسن والى أصله أنزع وبأسبابه أليق وهو يدل على ما صدر منه وينبه ما انتج عنه ويكون قراره على موجب صورته وأنواره على حسب محله ولكل شئ حد ومذهب ولكل كلام سبيل ومنهج وقد ذكر أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى كلام مسيلمة ما أخبرتك به فقال ان هذا كلام لم يخرج من آل فدل على أن الكلام الصادر عن عزة الربوبية ورفعة الالهية يتميز عما لم يكن كذلك ثم رجع الكلام بنا الى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان ولو لم يكن فيه الا ما من به الله على خلقه بقوله خلق الانسان علمه البيان فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهداه وأكمله وأعلاه وأبلغه وأسناه تأمل قوله تعالى افنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين فى شدة التنبيه على تركهم الحق والاعراض عنه وموضع امتنانه بالذكر والتحذير وقوله ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم فى العذاب مشتركون وهذا بليغ فى التحسير وقوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر معودين لمخالفة النهى والامر وقوله الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين هو فى نهاية الوضع من الخلة الا على التقوى وقوله ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وهذا نهاية فى التحذير من التفريط وقوله أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير هو النهاية فى الوعيد والتهديد وقوله وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى نهاية فى الوعيد وقوله وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون نهاية فى الترغيب وقوله ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض وكذلك قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا نهاية فى الحجاج وقوله وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير نهاية فى الدلالة على علمه بالخفيات ولا وجه للتطويل فان بيان الجميع فى الرفعة وكبر المنزلة على سواء وقد

ذكرنا من قبل أن البيان يصح أن يتعلق به الاعجاز وهو معجز من القرآن وما حكيناعن صاحب الكلام من المبالغة فى اللفظ فليس ذلك بطريق الاعجاز لأن الوجوه التى ذكرها قد تتفق فى كلام غيره وليس ذلك بمعجز بل قد يصح أن يقع فى المبالغة فى المعنى والصفة وجوه من اللفظ يثمر الاعجاز وتضمين المعانى أيضا قد يتعلق به الاعجاز اذا حصلت للعبارة طريق البلاغة فى أعلى درجتها وأما الفواصل فقد بينا أنه يصح أن يتعلق بها الاعجاز وكذلك قد بينا فى المقاطع والمطالع نحو هذا و بينا فى تلاؤم الكلام ما سبق من صحة تعلق الاعجاز به والتصرف فى الاستعارة البديعة يصح أن يتعلق به الاعجاز كما يصح مثل ذلك فى حقائق الكلام لأن البلاغة فى كل واحد من البابين تجرى مجرى واحدا وتأخذ مأخذا مفردا وأما الايجاز والبسط فيصح أن يتعلق بهما الاعجاز كما يتعلق بالحقائق والاستعارة والبيان فى كل واحد منهما مالا يضبط حده ولا يقدر قدره ولا يمكن التوصل الى ساحل بحره بالتعلم ولا يتطرق الى غوره بالتسبب وكل ما يمكن تعلمه ويتهيأ تلقنه ويمكن تخليصه ويستدرك أخذه فلا يجب أن يطلب وقوع الاعجاز به ولذلك قلنا ان السجع مما ليس يلتمس فيه الاعجاز لان ذلك أمر محدود وسبيل مورود ومتى تدرب الانسان به واعتاده لم يستصعب عليه أن يجعل جميع كلامه منه وكذلك التجنيس والتطبيق متى أخذ أخذهما وطلب وجههما استوفى ماشاء ولم يتعذر عليه أن يملا خطابه منه كما أولع بذلك أبو تمام والبحترى وان كان البحترى أشغف بالمطابق وأقل طلبا للمجانس فان قال قائل هلا قلت ان هذين البابين يقع فيهما مرتبة عالية لا يوصل اليها بالتعلم ولا تملك بالتعمل كما ذكرتم فى البيان وغير ذلك قلنا لو عمد الى كتاب الاجناس ونظر فى كتاب العين لم يتعذر عليه التجنيس الكثير فأما الاطباق فهو أقرب منه وليس كذلك البيان والوجوه التى رأينا الاعجاز فيها لانها تستوفى بالتعلم فان قيل فالبيان قد يتعلم قيل ان الذى يمكن أن يتوصل اليه بالتعلم يتفاوت فيه الناس و يتناهى فيه العادات وهو كما يعلم من مقادير القوى فى حمل الثقيل وأن الناس يتقاربون فى ذلك فيرمون فيه الى حد فاذا تجاوزوه وقفوا بعده ولم يمكنهم التخطى ولم يقدروا على التعدى الا أن يحصل ما يخرق العادة و ينقض العرف ولن يكون ذلك الا للدلالة على النبوات على شروط فى ذلك والقدر الذى يفوت الحد فى البيان ويتجاوز الوهم ويشذ عن الصنعة ويقذفه الطبع فى النادر القليل كالبيت البديع والقطعة الشريفة التى تتفق فى ديوان شاعر والفقرة تتفق فى لسان كاتب حتى يكون الشاعر ابن بيت وبيتين أو قطعة أو قطعتين والاديب شهيد كلمة أو كلمتين وذلك أمر قليل ولو كان كلامه كله يطرد على ذلك المسلك ويستمر على ذلك النهج أمكن أن يدعى فيه الاعجاز ولكنك ان

كنت من أهل الصنعة تعلم قلة الابيات الشوارد والكلمات الفرائد وأمهات القلائد فان أردت أن تجد قصيدة كلها وحشية وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مرضية لم تجد ذلك في الدواوين ولم تظفر بذلك الى يوم الدين ونحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة ولفظة بديعة وانما أنكرنا أن يقدروا على مثل نظم سورة أو نحوها وأحلنا أن يتمكنوا من حد في البلاغة ومقدار في الخطابة وهذا كما قلناه من أن سورة الشعر قد تتفق في القرآن وان لم يكن له حكم الشعر فأما قدر المعجز فقد بينا أنها السورة طالت أو قصرت وبعد ذلك خلاف من الناس من قال مقدار كل سورة أو أطول آية فهو معجز وعندنا كل واحد من الامرين معجز والدلالة عليه ما تقدم والبلاغة لا تتبين بأقل من ذلك فلذلك لم نحكم باعجازه وما صح أن تتبين فيه البلاغة ومحصولها الا بأنه في الابلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى وأجزل لفظ وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام فاذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغا وبليغا فاذا تجاوز حد البلاغة الى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة وانتهى الى أمر يعجز عنه الكامل في البراعة صح أن يكون له حكم المعجزات وجاز أن يقع موقع الدلالات وقد ذكرنا أنه بجنسه وأسلوبه مباين لسائر كلامهم ثم بما يتضمن من تجاوزه في البلاغة الحد الذي يقدر عليه البشر فان قيل فاذا كان يجوز عندكم أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة تباين جميع ديوانه في البلاغة ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه ولا يعرف سبب ذلك البيت ولا تلك القطعة في التفصيل ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك ويجعل جميع كلامه من ذلك النمط لم يجد الى ذلك سبيلا وله سبب في الجملة وهو التقدم في الصنعة لانه يتفق من المتأخر فيها فهلا قلتم انه اذا بلغ في العلم بالصناعة مبالغة قصوى كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت وسمت تلك القطعة وهلا قلتم ان القرآن من هذا الباب فالجواب انا لم نجد أحدا بلغ الحد الذي وصفتم في العادة وهذا الناس وأهل البلاغة اشعارهم عندنا محفوظة وخطبهم منقولة ورسائلهم مأثورة وبلاغاتهم مروية وحكمهم مشهورة وكذلك أهل الكهانة والبلاغة مثل قس بن ساعدة وسحبان وائل ومثل شق وسطيح وغيرهم كلامهم معروف عندنا وموضوع بين أيدينا لا يخفى علينا في الجملة بلاغة بليغ ولا خطابة خطيب ولا براعة شاعر مفلق ولا كتابة كاتب مدقق فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يداني القرآن في البلاغة أو يشاكله في الاعجاز مع ما وقع من التحدي اليه المدة الطويلة وتقدم من التقريع بالمجاراة الامد المديد وثبت له وحده خاصة قصب السبق والاستيلاء على الامد وعجز الكل عنه ووقفوا دونه حيارى يعرفون عجزهم وان جهل قوم سببهم ويعلمون نقصهم وان أغفل قوم وجهه رأينا أنه ناقض للعادة ورأينا أنه خارق للمعروف في

الحيلة وخرق العادة انما تقع بالمعجزات على وجه اقامة البرهان على النبوات وعلى أن من ظهرت عليه ووقعت موقع الهداية اليه صادق فيما يدعيه من نبوته ومحق فى قوله ومصيب فى هديه قد سادت له الحجة البالغة والكلمة التامة والبرهان النير والدليل البين

(فصل فى حقيقة المعجز)

معنى قولنا ان القرآن معجز على أصولنا أنه لا يقدر العباد عليه وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبى صلى الله عليه وسلم لا يصح دخوله تحت قدرة العباد وانما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه كما يستحيل عجزهم عن فعل الاجسام فنحن لا نقدر على ذلك وان لم يصح وصفنا بأنا عاجزون عن ذلك حقيقة وكذلك معجزات سائر الانبياء على هذا فلما لم يقدر عليه أحد شبه بما يعجز عنه العاجز وانما يقدر على العباد الاتيان بمثله لانه لو صح أن يقدروا عليه بطلت دلالة المعجز وقد أجرى العادة أن يتعذر فعل ذلك منه وأن لا يقدروا عليه ولو كان غير خارج عن العادة لاتوا بمثله أو عرضوا عليه من كلام فصحائهم وبلغائهم ما يعارضه فلما لم يشتغلوا بذلك علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم وأساليب نظامهم وزالت أطماعهم عنه وقد كنا بينا أن التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشعر ووجوه النظم المستحسنة فى الاوزان المطربة للسمع ولا يحتاج فى مثله الى توقيف وأنه يتبين أن مثل ذلك يجرى فى الخطاب فلما جرى فيه فطنوا له واختاروه وطلبوا أنواع الاوزان والقوافى ثم وقعوا على حسن ذلك وقدروا عليه بتوفيق الله عز وجل وهو الذى جمع خواطرهم عليه وهداهم وبدأ دواعيهم اليه ولكنه أقدرهم على حد محدود وغاية فى العرف مضروبة لعلمه بأنه سيجعل القرآن معجزا ودل على عظم شأنه بأنهم قدروا على ما بينا من التأليف وعلى ما وصفنا من النظم من غير توقيف ولا اقتضاء اثر ولا تحدى اليه ولا تقريع فلو كان هذا من ذلك القبيل أو من الجنس الذى عرفوه والفوه لم تزل أطماعهم عنه ولم يدهشوا عند وروده عليهم فكيف وقد أمهلهم وفسح لهم فى الوقت وكان يدعو اليه سنين كثيرة وقال عز من قائل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع والتحدى بان أنه خارج عن عاداتهم وانهم لا يقدرون عليه وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لان ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا الى تجربة عند سماع القرآن وهذا فى البلغاء منهم دون المتأخرين فى الصنعة والذى ذكرناه يدلك على أنه لا كلام أزيد فى قدر البلاغة من القرآن وكل من جوز أن يكون للبشر قدرة على أن يأتوا بمثله فى البلاغة لم يمكنه أن يعرف أن القرآن معجز بحال ولو لم يكن جرى فى المعلوم أنه سيجعل القرآن معجزا لكان

يجوز أن تجرى عادات الاولين وأخبار المرسلين وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمنه من الاخبار عن الغيوب وعن الحوادث التى أنبأ أنها تقع فى الثانى فلا يخرج من أن يكون متأولا على ما يقتضيه نظام الخطاب من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة تقدح فى معجزته أو تعارضه فى طريقه وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك فى وجه دلالته واعجازه وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه ثم قال ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى فاخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون فى رده اما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم وكانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه وبأنهم لا يتبين لهم وجه الاعجاز فيه لانه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الامور وأنه اذا تحداهم الى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به على ما نبينه فى وجه هذا الفصل الى أن قال قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد والذى ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور فكرهنا سرد القول فيها فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه يجده كذلك ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم فأخبر أن الكتاب آية من آياته وعلم من أعلامه وأن ذلك يكفى فى الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الانبياء صلوات الله عليهم ويدل عليه قوله عز وجل تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقوله أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته فدل على أنه جعل قلبه مستودعا لوحيه ومستنزلا لكتابه وأنه لو شاء صرف ذلك الى غيره وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق وابطال الباطل مع صرفه عنه ولذلك اشباه كثيرة تدل نحو الدلالة التى وصفناها فبان بهذا وبنظائره ما قلنا من أن نبأ نبوته صلى الله عليه وسلم على دلالة القرآن ومعجزته وصار له من الحكم فى دلالته على نفسه وصدقه أنه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الانبياء لانها لا تدل على أنفسها الا بأمر زائد ووصف مضاف اليها لان نظمها ليس معجزا وان كان ما يتضمنه من الاخبار عن الغائبات والغيوب معجزا وليس كذلك القرآن لانه يشاركها فى هذه الدلالة ويزيد عليها فى ان نظمه معجز فيمكن أن يستدل به عليه وحل فى هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم سبحانه لان موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم أنه فى الحقيقة كلامه وكذلك من يسمع القرآن يعلم أنه كلام الله وان اختلف الحال فى ذلك البشر بقدر زائد على ما ألفوه من البلاغة وأمر يفوق ما عرفوه من الفصاحة وأما نظم القرآن فقد قال أصحابنا فيه ان الله

تعالى يقدر على نظم القرآن الرتبة التي لا مزيد عليها فقد قال مخالفونا ان هذا غير ممتنع لان فيه من الكلمات الشريفة الجامعة للمعاني البديعة وانضاف الى ذلك حسن الموقع فيجب أن يكون قد بلغ النهاية لانه عندهم وان زاد على ما في العادة فان الزائد عليها وان تفاوت فلا بد من أن ينتهي الى حد لا مزيد عليه والذي يقول انه لا يمتنع ان يقال انه يقدر الله تعالى على أن يأتي بنظم أبلغ وأبدع من القرآن كله وأما قدرة العباد فهي متناهية في كل مايقدرون عليه مما تصح قدرتهم عليه

(فصل في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأمور تتصل بالاعجاز)

ان قال قائل اذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب وقد قال هذا في حديث مشهود وهو صادق في قوله فهلا قلتم ان القرآن من نظمه لقدرته في الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره قيل قد علمنا أنه لم يتحدهم الى مثل قوله وفصاحته والقدر الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشاعرين و كلام الخطيبين في الفصاحة وذلك مما لا يقع به الاعجاز وقد بينا قبل هذا أنا اذا وازنا بين خطبه و رسائله وكلامه المنثور وبين نظم القرآن تبين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله عز وجل وكلام الناس ولا معنى لقول من ادعى أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم معجز وان كان دون القرآن في الاعجاز فان قيل لولا أن كلامه معجز لم يشتبه على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين وبين غيرهما من القرآن وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت في أنه هل هو من القرآن ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط وقد يجوز أن يكون شذ عن مصحفه لا لانه نفاه من القرآن بل عول على حفظ الكل اياه على أن الذي يروونه خبر واحد لا يسكن اليه في مثل هذا ولا يعمل عليه ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت لئلا ينساه كما يكتب الواحد منا بعض الادعية على ظهر مصحفه وهذا نحو ما يذكره الجهال من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود وبين مصحف عثمان رحمة الله عليهما ونحن لا ننكر أن يغلط في حروف معدودة كما يغلط الحافظ في حروف وينسى وما لا نجيزه على الحفاظ مما لم نجزه عليه ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا لكانت الصحابة تناظره على ذلك وكان يظهر وينتشر فقد تناظروا في أقل من هذا وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه وقد علمنا اجماعهم على ما جمعوه في المصحف فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولدة بالاجماع المتقرر والاتفاق المعروف ويجوز أن يكون الناقل اشتبه عليه لانه خالف في النظم والترتيب فلم يثبتهما في آخر القرآن والاختلاف بينهم في موضع الاثبات غير الكلام في الاصل الا ترى أنهم قد اختلفوا في أول ما نزل من

القرآن فنهم من قال قوله اقرأ باسم ربك ومنهم من قال يا أيها المدثر ومنهم من قال فاتحة الكتاب واختلفوا أيضا فى آخر ما أنزل فقال ابن عباس اذا جاء نصر الله وقالت عائشة سورة المائدة وقال البراء بن عازب آخر ما نزل سورة براءة وقال سعيد بن جبير آخر ما أنزل قوله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله وقال السدى آخر ما نزل فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت ويجوز أن يكون فى مثل هذا خلاف وأن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع ولو كان القرآن من كلامه لكان البون بين كلامه وبينه مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئهما رجل واحد وكانوا يعارضونه لانا قد علمنا أن القدر الذى بين كلامهم وبين كلام النبى صلى الله عليه وسلم لا يخرج الى حد الاعجاز ولا يتفاوت التفاوت الكثير ولا يخفى كلام من جنس أوزان كلامهم وليس كذلك نظم القرآن لانه خارج من جميع ذلك فان قيل لو كان على ما ادعيتم لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غيره قبل معرفة الفصل من وزن الشعر ووزنه والفرق بينه وبين غيره من الاوزان الى نظر وتأمل وفكر وروية واكتساب وان كان النظم المختلف الشديد التباين اذا وجد أدرك اختلافه بالحاسة الا ان كل وزن وقبيل اذا أردنا تمييزه من غيره احتجنا فيه الى الفكرة والتأمل فان قيل لو كان معجزا لم يختلف أهل الملة فى وجه اعجازه قيل قد يثبت الشئ دليلا وان اختلفوا فى وجه دلالة البرهان كما قد يختلفون فى الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق فأما المخالفون فانه يتعذر عليهم أن يعرفوا أن القرآن كلام الله لان مذهبهم أنه لا فرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول أو من قبل الله عز وجل فى كونه معجزا لانه ان خصه بقدر من العلم لم تجر العادة بمثله أمكنه أن يأتى بما له هذه الرتبة وكان متعذرا على غيره لفقد علمه بكيفية النظم وليس القوم بعاجزين عن الكلام ولا عن النظم والتأليف والمعنى المؤثر عندهم فى تعذر مثل نظم القرآن علينا فقد العلم بكيفية النظم وقد بينا قبل هذا أن المانع هو أنهم لا يقدرون عليه والمفحم قد يعلم كيفية الاوزان واختلافها وكيفية التركيب وهو لا يقدر على نظم الشعر وقد يعلم الشاعر وجوه الفصاحة واذا قالا الشعر شعر أحدهما فى الطبقة العالية وشعر الآخر فى الطبقة الوضيعة وقد يطرد فى شعر المبتدئ والمتأخر فى الحذق القطعة الشريفة والبيت النادر وما لا يتفق للشاعر المتقدم والعلم بهذا الشأن فى التفصيل لا يغنى ويحتاج معه الى مادة من الطبع وتوفيق من الاصل وقد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة والنساجة ثم يتفق لاحدهما من اللطف فى الصنعة ما لا يتفق فى الآخر وكذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون مع العلم بكيفية النظم وكذلك أهل الرمى يتفاضلون فى الاصابة مع العلم بكيفية الاصابة

واذا وجدت الشاعر بيتا أوقطعة أحسن من شعر امرئ القيس يدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه لأنه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد و بحسب ذلك البيت فى الشرف والحسن والبراعة ولا يجوز أن يعلم نظم قطعة و يجهل نظم مثلها وان كان كذلك علم أن هذا لا يرجع الى ماقدروه من العلم أولسنا نقول انه يستغنى عن العلم فى النظم بل يكفى علم به فى الجملة ثم يقف الامر على القدرة وهذا يبين لك بأنه قد يعلم الخط فيكتب سطرا ذلو أراد أن يأتى بمثله بحيث لايغادر منه شيأ لتعذر والعلم حاصل وكذلك قد يحسن كيفية الخط والجيد منه من الردىء ولا يمكنه أن يأتى بأرفع درجات الجيد وقد يعلم قوم كيفية ادارة الاقلام وكيفية تصور الخط ثم يتفاوتون فى التفصيل و يختلفون فى التصور وألزمهم أصحابنا أن يقولوا بقدرتنا على احداث الاجسام وانما يتعذر وقوع ذلك منا لأنا لانعلم الأسباب التى اذا عرفنا ايقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الاجسام وقد ذهب بعض المخالفين الى أن العادة انتقضت بأن أنزله جبريل فصار القرآن معجزا لنزوله على هذا الوجه ومن قبله لم يكن معجزا وهذا قول أبى هاشم وهو ظاهر الخطا لأنه يلزم أن يكونوا قادرين على مثل القرآن وان لم يتعذر عليهم فعل مثله وانما تعذر بانزاله ولو كانوا قادرين على مثل ذلك كان قد اتفق من بعضهم مثله وان كانوا فى الحقيقة غير قادرين قبل نزوله ولابعده على مثله فهو قولنا وأما قول كثير من المخالفين فهو على ما بينا لان معنى المعجز عندهم تعذر فعل مثله وكان ذلك متعذرا قبل نزوله وبعده فأما الكلام فى أن التأليف هل له نهاية فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه فمنهم من قال ليس لذلك نهاية كالعدد فلا يمكن أن يقال انه لا يتأتى قول قصيدة الاوقد قيلت من قبل ومنهم من قال ان ماجرت به العادة فله نهاية ومالم تجربه العادة فلا يمكن أن تعلم نهاية الرتبة فيه وقد بينا أن على أصولنا قد تقدر لكلامنا حد فى العادة ولاسبيل الى تجاوزه ولا يقدر فان القرآن خرق العادة فزاد عليها

﴿فصل﴾ ان قيل هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه قيل لابد من ذلك لأنا لو نعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى أتى بالقرآن وظهر ذلك من جهته لم يمكن أن يستدل به على نبوته وعلى هذا لو تلقى رجل منه سورة فأتى بها بلدا وادعى ظهورها عليه وأنها معجزة له لم تقم الحجة عليهم حتى يبحثوا أو يتبينوا أنها ظهرت عليه وقد حققت أن القرآن أتى به النبى صلى الله عليه وسلم وظهر من جهته و جعله علما على نبوته وعلمنا ذلك ضرورة فصار حجة علينا

﴿فصل﴾ قد ذكرنا فى الابانة عن معجز القرآن وجيزا من القول رجونا أن يكفى وأملنا أن يقنع والكلام فى أوصافه ان استقصى بعيد الأطراف واسع الأكناف لعلو شأنه

وشريف مكانه والذى سطرناه فى الكتاب وان كان موجزا وأمليناه فيه وان كان خفيفا فانه ينبه على الطريقة ويدل على الوجه ويهدى الى الجهة ومتى عظم محل الشئ فقد يكون الاسهاب فيه عيا والاكثار فى وصفه تقصيرا وقد قال الحكيم وقد سئل عن البليغ متى يكون عنيا فقال متى وصف هوى أو حبيبا وضل أعرابى فى سفر له ليلا فطلع القمر فاهتدى به فقال ماأقول لك أقول رفعك الله وقد رفعك أم أقول نورك الله وقد نورك أم أقول جملك الله وقد جملك ولولا أن العقول تختلف والأفهام تتباين والمعارف تتفاضل لم نحتج الى ماتكلفنا ولكن الناس يتفاوتون فى المعرفة ولو اتفقوا فيها لم يجز أن يتفقوا فى معرفة هذا الفن أو يجتمعوا فى الهداية الى هذا العلم لاتصاله بأسباب وتعلقه بعلوم غامضة الغور عميقة القعر كثيرة المذاهب قليلة الطلاب ضعيفة الأصحاب وبحسب تأتى مواقعه يقع الافهام دونه وعلى قدر لطف مسالكه يكون القصور عنه أنشدنى أبو القاسم الزعفرانى قال أنشدنى المتنبى لنفسه القطعة التى يقول فيها

وكم من عائب قولا صحيحا ✶ وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه ✶ على قدر القرائح والعلوم

وأنشدنى الحسن بن عبد الله قال أنشدنا بعض مشايخنا للبحترى

أهز بالشعر أقواما ذوى سنة ✶ لو أنهم ضربوا بالسيف ماشعروا
علىّ نحت القوافى من مقاطعها ✶ وماعلىّ لهم أن تفهم البقر

فاذا كان نقد الكلام كله صعبا وتمييزه شديدا والوقوع على اختلاف فنونه متعذرا وهذا فى كلام الآدمى فماظنك بكلام رب العالمين قد أبنا لك أن من قدر على أن البلاغة فى عشرة أوجه من الكلام لايعرف من البلاغة الا القليل ولا يفطن منها الا اليسير ومن زعم أن البديع يقتصر على ماذكرنا من قبل عنهم فى الشعر فهو متطرف. بلى ان كانوا يقولون أن هذه من وجوه البلاغة وغرر البديع وأصول اللطيف وأن مايجرى مجرى ذلك ويشاكله ملحق بالأصل ومردود على القاعدة فهذا قريب وقد بينا فى نظم القرآن ان الجملة تشتمل على بلاغة منفردة والاسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف ثم الفواتح والخواتم والمبادى والمثانى والطوالع والمقاطع والوسائط والفواصل ثم الكلام فى نظم السور والآيات فى تفاصيل التفاصيل ثم فى الكثير والقليل ثم الكلام الموشح والمرصع والمفصل والمصرع والمجنس والموشى والمحلى والمكلل والمطوق والمتوج والموزون والخارج عن الوزن والمعتدل فى النظم والمتشابه فيه ثم الخروج من فصل الى فصل ووصل الى وصل ومعنى الى معنى ومعنى فى معنى والجمع بين المؤتلف والمختلف والمتفق والمتسق وكثرة

التصرف وسلامة القول فى ذلك كله من التعسف وخروجه عن التمحق والتشدق وبعده عن التعمل والتكلف والألفاظ المفردة والابداع فى الحروف والأدوات كالابداع فى المعانى والكلمات والبسط والقبض والبناء والنقض والاختصار والشرح والتشبيه والوصف وتميز الابداع من الاتباع كتميز المطبوع عن المصنوع والقول الواقع عن غير تكلف ولا تعمل وأنت تتبينه فى كل ماتصرف فيه من الانواع أنه على سمت شريف ومرقب منيف يبهر اذا أخذ فى النوع الربى والأمر الشرعى والكلام الالهى الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت وشرف الجبروت ومالا يبلغ الوهم مواقعه من حكمة واحكام واحتجاج وتقرير واستشهاد وتقريع واعذار وانذار وتبشير وتحذير وتنبيه وتلويح واشباع وتصريح واشارة ودلالة وتعلم أخلاق زكية وأسباب رضية وسياسات جامعة ومواعظ نافعة وأوامر صادعة وقصص مفيدة وثناء على الله عز وجل عاهو أهله وأوصاف كما يستحقه وتحميد كما يستوجبه واخبار عن كائنات فى التأتى صدقت وأحاديث عن المؤتنف تحققت ونواه زاجرة عن القبائح والفواحش واباحة الطيبات وتحريم المضار والخبائث وحث على الجميل والاحسان تجد فيها الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك فى منظر بهيج ونظم أنيق ومعرض رشيق غير متعاص على الاسماع ولا متلو على الأفهام ولا مستكره فى اللفظ ولا متوحش فى المنظر غريب فى الجنس غير غريب فى القبيل ممتلئ ماء ونضارة ولطفا وغضارة يسرى فى القلب كما يسرى السرور ويمر الى مواقعه كما يمر السهم ويضىء كما يضىء الفجر ويزخر كما يزخر البحر طموح العباب جموح على المتناول المنتاب كالروح فى البدن والنور المستطير فى الأفق والغيث الشامل والضياء الباهر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد من توهم أن الشعر يلحق شأوه بان ضلاله وصح جهله اذ الشعر سمت قد تناولته الألسن وتداولته القلوب وانثالت عليه الهواجس وضرب الشيطان فيه بسهمه وأخذ منه بحظه وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلا وأقرب مأخذا وأسهل مطلبا ولذلك قالوا فلان مفحم فأخرجوه مخرج العيب كما قالوا فلان عيى فأوردوه مورد النقص والقرآن كتاب دل على صدق متحمله ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها وبرهان شهد له براهين الأولياء المتقدمين وبينة على طريقة ماسلف الأولون حيرهم به اذ كان من جنس القول الذى زعموا انهم أدركوا فيه النهاية وبلغوا فيه الغاية فعرفوا عجزهم كما عرف قوم عيسى نقصانهم فما قدروا من بلوغ أقصى الممكن فى العلاج والوصول الى أعلى مراتب الطب فجاءهم بما بهرهم من احياء الموتى وابراء الأكمه والابرص وكما أتى موسى بالعصا التى تلقفت مادققوا فيه من سحرهم وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم وكما

سخر لسليمان من الرياح والطير والجن حين كانوا يولعون بدقائق الحكمة وبدائع من اللطف ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الأول والآخر وقوفا واحدا وبقى حكمها الى يوم القيامة أنظر وفقك الله لما هديناك اليه وفكر في الذى دللناك عليه فالحق منهج واضح والدين ميزان راجح والجهل لا يزيد الا عماولا يورث الا ندما قال الله عز وجل قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الألباب وقال وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وقال يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا على حسب ما آتى من الفضل وأعطى من الكمال والعقل تقع الهداية والتبيين فان الأمور تتم باسبابها وتحصل بآلتها ومن سلبه التوفيق وحرمه الارشاد والتسديد فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فاحمد الله على ما رزقك من الفهم ان فهمت وقل رب زدنى علما وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وان ارتبت فيما بيناه فازدد فى تعلم الصنعة وتقدم فى المعرفة فسيقع بك على الطريق الأرشد ويقف بك على الوجه الأحمد فانك اذا فعلت ذلك أحطت علما وتيقنت فهما ولا يوسوس اليك الشيطان بانه قد كان من هو أعلم منك بالعربية وأرجح منك فى الفصاحة أقوام وأقوام ورجال ورجال فكذبوا وارتابوا لأن القوم لم يذهبوا عن الاعجاز ولكن اختلفت أحوالهم فكانوا بين جاهل وجاحد وبين كافر نعمة وحاسد وبين ذاهب على طريق الاستدلال بالمعجزات وحائد عن النظر فى الدلالات وناقص فى باب البحث ومختل الآلة فى وجه الفحص ومستهين بامر الأديان وغاو تحت حبالة الشيطان ومقذوف بخذلان الرحمن وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ودرجات الحرمان مختلفة وهلا جعلت بازاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامرى فى حسن اسلامه وكعب بن زهير فى صدق ايمانه وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا على أن الصدر الأول ما فيهم الا نجم زاهر أو بحر زاخر وقد بينا أن لا اعتصام الا بهداية الله ولا توفيق الا بنعمة الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فتأمل ما عرفناك فى كتابنا وفرغ له قلبك واجمع له لبك ثم اعتصم بالله يهدك وتوكل عليه يغنك ويجرك واسترشده يرشدك

وهو حسبي وحسبك ونعم الوكيل ۞ تم طبع هذا الكتاب

النفيس فى ١٥ الحجة سنة ١٣١٥ هجرية

على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

وأزكى التحية


Bibliotheca Alexandrina
04200089